حكايا من حارات دمشق

سعيد كامل الكوسا

www.fikr.com
آفاق معرفة متجددة

سعيد كامل الكوسا
عضو الجمعية السورية للموهبة والإبداع

حكايا

من حارات دمشق

حكايا من حارات دمشق /سعيد كامل الكوسا.- دمشق: دار الفكر ٢٠١٠ .-
١٢٠ص ؛ ٢٠سم.
ISBN: 978-9933-10-165-7
١-٨١٣,٠١ ك و س ح ٢- العنوان ٤- الكوسا
مكتبة الأسد

حكايا من حارات دمشق

سعيد كامل كوسا

الرقم الاصطلاحي: 2251.036

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-396-5

الرقم الموضوعي: 813 (القصة والرواية والحكاية)

59 ص، 12 × 20 سم

الطبعة الأولى : 1434هـ= 2013م

© جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى جَدّةِ مدائن الدنيا
العروسِ العصيةِ على الهرم
دمشقَ الخالدة
هذه الباقة من القصص في عيدها الثقافي المجيد
سعيد

المقدمة

تحوم أكثر أحداث هذه القصص حول أشخاص ولدوا وعاشوا في دمشق المدينة الخالدة على مر الدهر.

دمشق الحبيبة التي تعيش في روحي وتتغلغل في دمي منذ أن وعيت الدنيا، وفتحت عيني على دروبها ودورها وأزقتها وأرباضها ومنتزهاتها، ونهرها وقاسيونها وأسوارها، ومنذ شممت أريج ياسمينها وورودها..

ويشاء الله أن أكون أعددت بعض القصص لإصدارها في كتاب عاش أكثر أبطاله في هذه المدينة العزيزة، ولم أكن، حين أعددته، على دراية بما قُدِّرَ لدمشق أن يحدث فيها، ومن البدهي والعالمُ كله مقبل على الاحتفال بهذه المدينة وتكريمها عاصمةً للثقافة العربية في عام 2008 أن يكون حديث المقدمة- وبكل فخر- عنها..

من هذا المنطلق أحببت أن أدلي دلوي في هذا المضمار ولو بنبذة صغيرة قد لا تشعر بها دمشق، ولكنها بعض الوفاء لمدينة رعت طفولتي وشبابي، وهي اليوم ترعى شيخوختي بعطف وحنان وقد لا ترعاني بمثلِهما مدينة أخرى..

إذن فهذه لمحة صغيرة عن دمشق؛ أقدمِ مدينة مسكونة على وجه الأرض، وستبقى تاريخَ الزمان، وسجلَ الحضارة الإنسانية على مدى الدهر، تطوي العصور أجيالاً بعد أجيال؛ لأنها عمود ضياء، وشجرة كرم وعطاء، حملت لواء العروبة منذ أيام الأمويين، معبرة عن أصالتها العربية بصمودها على مر الأحداث المتعاقبة؛ إذ أبقت آثار جميع الحضارات والعهود التي مرت بها ماثلة للعيان، محفورة بالصخر على كل الدمار والخراب اللذين لحقا بأوابدها ومعالمها التاريخية من قبل الغزاة الطامعين في الاستيلاء عليها، يطل عليها جبل قاسيون من عليائه ليحتضن ربوعها ودورها وحدائقها وجداولها وأشجارها؛ لتبقى حية معطاءة كريمة كأكرم كرماء العرب.

دمشق حبيبة متواضعة تنسى بتاريخها العريق الإساءة، ولا تنسى الإحسان، غازلها الأدباء والشعراء قديماً وحديثاً، وأبدعوا في إطلاق أحلى الأسماء عليها فكانت: جلق والفيحاء والشام، وإرم ذات العماد.

بيد أني من جميع هذه الأسماء وجدت أن كلمة (دامسكين) التي تعني الوردة الجورية هي أجمل معنى خليق بها.

كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية؛ وهي أول دولة إسلامية عربية قوية رفرفت راياتها على الصين شرقاً وامتدت إلى بحر الظلمات غرباً؛ فكانت بكل فخر تحكي مجد الأمة العربية وزهو حضارتها، وموسوعة تاريخية تسجل تاريخ الإنسانية منذ آلاف السنين.

شهدت دمشق تطوراً عمرانياً كبيراً في عهد الأمويين حين جعلوها عاصمة لملكهم، ولكن مع الأسف الشديد لم يبق من آثارهم إلا قليل؛ ولعل المسجد الأموي يكفي وحده للتعبير عن هؤلاء العمرانيين المبدعين، وإن وفاءنا لدمشق يحتم علينا إيلاءها مزيداً من الرعاية والعناية لما لها من أهمية حضارية بالغة؛ فهي رمز العرب وعنوانهم عبر التاريخ؛ تعرف بهِم ويعرفون بها، فهي سليلة مجد الماضي والحاضر، تعرضت لهزات لا تحصى، ومع ذلك بقيت في رسوخها وصبرها وشموخها علامة بارزة واضحة على أصالة الأمة العربية، وفيةً للعهد، مؤكدة خلود الحضارة وعظمة الإنسان.

دمشق جَدَّةُ المدن التي تحدثت عنها الكتب المقدسة، زارها كثير من المؤرخين الجغرافيين والرحالة والشعراء والعلماء؛ وتحدثوا عنها بكل إعجاب وتقدير..

ولو استعرضنا كل من كتب عن دمشق لوجدنا أن الجميع يعدُّونها رفيقة الزمن ودوحة الإنسان، وقلب العروبة، وعقل الإنسانية المفكر، وصوت التاريخ وموطن الإبداع والحضارة، وبلد الترحيب بالغريب، فعلى أرضها اصطرعت مختلف المدنيات وتركت وراءها أوابد تحكي قصة الإنسان الذي عاش في أرضها قبل التاريخ؛ لأنها نقطة التقاء الشرق والغرب، وهذا ما جعلها تشهد ازدهار المعرفة واندثار الحضارات منذ فجر الحياة..

وإذا كان لنا أن نذكر، على سبيل المثال، من طاف بها من الرحالين فإنه يتبادر إلى ذهننا (ابن جبير) صاحب الرحلة المشهورة التي طاف بها بلاد الله الواسعة، وجاء بعده (عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة) صاحب كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)؛ وقد دفعه إلى زيارتها – كما ذكر – فَرْطُ الشوق ودافع الرغبة، واتفق في وصفها مع ابن جبير بأنها جنة المشرق، وعروس المدن التي اجتليناها؛ فقد تحلت بأزاهير الرياحين، فهي ذات ظلٍّ ظليل، وماء سلسبيل.. وقد امتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر.. إلى أن قالا: إذاً كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي تُساميها وتحاذيها..

ولا يمكنني في هذه المقدمة أن أحيط بالكتب التي تحدثت عن مدينة دمشق فهي أكثر من أن تحصى أو تستوعبَها هذه العجالة، ويكفي دمشقَ فخراً أن أبا القاسم علي بن الحسين الملقب بعد وفاته بابن عساكر ألف كتاباً عن تاريخ دمشق استوعب ثمانين مجلداً؛ اختصره الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور في تسعة وعشرين جزءاً قامت بنشره مشكورة دار الفكر بدمشق بحلة وطباعة أنيقتين، وهذا الكتاب يعد موسوعة عن دمشق جدير بأبنائها أن يزينوا مكتباتهم بها..

كما أن أبا بكر بن عبد الله البدري الدمشقي ألف كتابه المسمى (نزهة الأنام في محاسن الشام) ضمنه أجمل ما قيل في دمشق، وعدّه نزهة لطيفة يقضيها القارئ بين صفحات كتابه المذكور الذي استوعب محاسن دمشق قديماً، تلك التي اندثرت بعد القضاء على غوطتها الغناء حديثاً، حيث كانت في يوم من الأيام من أعاجيب الزمان، ونضبت مياه بردى التي تغنى بها الشعراء ونظموا القصائد الجميلة فيها.

فدمشق كانت دائماً وستبقى عشق العرب، فمن أحبها أحب العرب، ومن رأى تاج المجد الناصع على جبينها فقد تعلم صناعة المجد؛ لأنها سليلة مجد الماضي والحاضر، وستبقى كذلك

مهما أصابها من هزّات؛ لأنها تتطلع إلى العُلا وتسعى إليه.

وممن تحدث عن فضائل الشام ودمشق الحافظ أبو الحسين الربعي، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه مناقب الشام وأهله، ومما هو جدير بالذكر أن أهل دمشق يسمونها الشام فدمشق في عرفهم هي الشام، والشام هي دمشق.

أما في تاريخنا الحديث فإن الموسوعة الأدبية الدمشقية التي تحمل عنوان (يا مال الشام) بأجزائها الثلاثة الضخمة للأديبة الدكتورة سهام ترجمان، عاشقة دمشق بامتياز، هي سجل تاريخي عصري لدمشق وأوابدها لم تترك صغيرة أو كبيرة من أحوالها إلا وأبدعت في سردها بأسلوب رشيق وعبارة أنيقة، وزادت على كل ذلك بالصور الفوتوغرافية التي ستبقى شاهداً معاصراً على دمشق ومعالمها.

فإذا كان ابن عساكر صوَّر دمشق في القرن السابع بالقلم؛ فهي قد صورتها بالريشة والقلم ونبض الحياة..

وبعد؛ فهذه اللمحة الخاطفة عن مدينة دمشق دفعني إليها حبي لها فآثرتُ ألاَّ يبدأ القارئ بقصص الكتاب قبل القيام بنزهة لطيفة؛ يشم من خلالها رائحة ياسمينها وفلِّها ووردها عبر أزقتها المتعرجة، وحاراتها الضيقة، التي لا يعادلها أي أريج سوى عبق زهر النارنج والكَبَّاد الذي تنتصب أشجاره حول بَحراتها التي كانت تموج فيها مياه بردى الخالد..

أستميح القارئ عذراً لإطالتي، بيد أن حب دمشق أذهلني عما أنا فيه؛ وأنا الذي يفخر بما يكتب من قصص فيها روح دمشق، وعطر دمشق، وفواكه دمشق، وياسمين دمشق، وأهل دمشق.

فإلى محبي دمشق أقدم هذا الكتاب

سعيد

الوصية

مَرَّ بها عبد الرحيم فلفت نظره أنها تقف على مقربة من باب الجمعية التي تشكل جزءاً من الجامع.

ضاقت بوجه أم سليم السبل، واسودت في وجهها الحياة، وتكالبت عليها الهموم، وحارت في أمرها؛ ماذا تفعل بعد أن أَلَحَّت عليها الحاجة إلى كل شيء..؟!

فأمامها أربعة أطفال صغار لم يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره، وأصغرهم طفلة بدأت تحبو على ركبتيها ويديها على أرض باردة لا يسترها بساط، وتحاول جهدها فلا تستطيع الوقوف على قدميها.

الأسرة فقيرة معدمة ليس لها من يعولها بعد أن غيّب جوفُ التراب منذ شهور قليلة عمادَها، وتركها وحدها تصارع الحياة بقسوتها وعذابها..

لقد ضربت كفاً بكف أسفاً لمصيرها، وسَرَّحت ناظريها في الفراغ الموحش الصامت حولها بعد أن أطلقت زفرة لاهبة تكاد تحرق ما حولها، ثم استعرضت في مخيلتها الضيقة الباهتة كل الوسائل الموصلة إلى إطعام هذه الأسرة، وإشباع معدهم الفارغة إلا من طعام قليل لا يسمن ولا يغني من جوع، وقد ينوء بإعالتها رجل قوي قادر على الكسب، فكيف الحال بامرأة لا حول لها ولا قوة، ولا رصيد لها من الثقافة والجَلَد يعينها على القيام بعمل ما ذي مردود يحميها من ذل السؤال، وشظف العيش..؟ وتساءلت في نفسها: ماذا تفعل..؟

أليس الجوع كافراً..؟

أليس الحاجة تسوّغ الوسيلة..؟

وفكرت.. وفكرت طويلاً، وقلبت الأمور على وجوهها.. وراودها ما راودها.. ولكنها بإصرار وإيمان في أعماقها استبعدت أن تطعم هذه الأسرة من بيع الجسد في سوق النخاسة، وأكدت

بحزم وعناد أن الحرة تجوع ولا تطعم من ثدييها، وهي شابة لم تتجاوز الثلاثين من عمرها. ومجالها رحب، فليقض عليها وعلى أولادها الجوع ولا مرحباً بالشبع الآثم..

ولكنها حين استبعدت هذا الخاطر تراءى لها مجال آخر أَصْوَنُ للعرض وأبذلُ لماء الوجه، وهو طريق التسول الواسع العريض وما سمعت عنه من أحاديث، ولا عليها إذا طرقته وهي في أشد الحاجة إليه، ومجاله رحب ومردوده عظيم، بيد أنها طرحته جانباً حين خطر لها أن تستجدي جوارها، غير أنها نبذت هذه الفكرة أيضاً لأنها وإيّاهم في الفقر سواء.. وكيف لها وقد صانت ماء وجهها في أحلك الظروف وأسوئها أن تبذله اليوم، ولم يمض على موت زوجها سوى خمسة شهور؟!

حارت في أمرها، لقد أنفقت ثمن كل ما وصل إلى يدها من بيع أثاث البيت إذا جاز أن تسميه أثاثاً، حتى أصبحت الدار خالية خاوية؛ ليس فيها ما يباع ولو بثمن زهيد؛ فماذا تفعل..؟

وهنا ومضت في ذهنها المنهك ومضة ارتاحت لها نوعاً ما، ووجدتها أحسن حلٍّ لمشكلتها، وخير مواس لمأساتها، ولكن اليوم ليس يوم جمعة وهو ما اعتادت فيه الجمعيات الخيرية التي تسعف الفقراء وتنجدهم أن تفتح أبوابها لاستقبال أصحاب الحاجة وحل مشاكلهم المعيشية المتعددة.. فاليوم يوم السبت؛ وبينه وبين يوم الجمعة خمسة أيام بلياليها، ومع ذلك فلْتتوكل على الله ولْتطرق باب إحداها عسى أن يفتح لها القدر بابها فتجد من يعطف عليها، ويلبي حاجتها..

ولما أزمعت التنفيذ تركت أولادها الأربعة في عهدة أكبرهم يرعاهم حين غيابها، وقصدت باب الله الكريم في يوم كان برده شديداً، وريحه عاصفة، وغيومه تملأ رحب السماء منذرة بهطول أمطار غزيرة..

وصلت المكان مع انفضاض المصلين من صلاة العصر، وتوجهت نحو باب الجمعية تطرقه فوجدته موصداً، وهي تدرك أنه موصد وليس وراءه من نأمة توحي بوجود أحد خلفه، رغم إصاخة سمعها بأشد ما تستطيعه، ولكنها؛ زيادةً في التأكيد، ومقاومة لليأس والإحباط؛ راحت تطرقه طرقات ملحَّة عسى أن تجد من يلبيها، ولكن... لا مجيب، وقد لفها الحزن فوق مأساتها، فوقفت يائسة لا تدري ماذا تفعل؛ محبطة بلا بارقة أمل، وتثاقلت رجلاها حيث كانت واقفة، وتسمرت في مكانها لا تريم في الوقت الذي كانت فيه أفواج المصلين تغادر المسجد من صلاة العصر..

مَرَّ بها عبد الرحيم فلفت نظره أنها تقف على مقربة من باب الجمعية، وهو يعرف أنها لا تفتح أبوابها إلا يوم الجمعة وفي مناسبات خاصة، فلم يعرها اهتماماً، وتجاوزها ببضع خطوات، ثم عاد نحوها وقد دفعه الفضول الحسن إلى تعرف مشكلتها، واستقر في حدسه فجأة أن لها أمراً، وما عليه لو سألها عن شأنها وأعلمها أن الجمعية لا تفتح أبوابها في هذا اليوم؟ فارتد نحوها، وقبل أن يسألها عن شأنها قال لها: الجمعية لا تفتح أبوابها في هذا اليوم.. فهل أنت ممن تساعده الجمعية وقد غاب عنك أن هذا اليوم يوم السبت..؟ فأجابته بلهجة حزينة وأسف ظاهر: أنا لست ممن تساعده الجمعية لأني لم أراجعها قبل الآن، ولكن الأمل كان يراودني بأني سأجد من يسعفني فيها حتى في هذا اليوم، وسكتت..

وهنا أدرك عبد الرحيم أنَّ المرأة في حاجة ماسة إلى الإسعاف والمؤازرة، فقال لها ليبعد عن نفسه شكوك التحرش والتطفل: أنا رجل ذو عيال، وسني فوق الستين، وليس لي أي مأرب في النساء، لا من قريب ولا من بعيد، وفوق ذلك فأنا مريض أنتظر اليوم الموعود فاذكري لي حاجتك بصدق وأسأل الله أن يوفقني في حلها..

استأنست أم سليم بقول عبد الرحيم، واندفعت تشكو له أمرها بانفعال شديد مشوبٍ باليأس من كل نجدة، وكيف تركت أولادها في عهدة أكبرهم، ودفعها الأمل إلى الجمعية.. وكيف خاب أملها..

أَحَسَّ عبد الرحيم بعطف شديد وتأثر بالغ بمأساة هذه الصبية، ولم يشك في صدق لهجتها، وطهرها البادي في مظهرها، فدفعته أريحيته دون تردد إلى القول: أرجو انتظاري بضع دقائق ريثما أصل إلى داري القريبة من مكانك، وسأعود سريعاً مع الأمل أن يكون في عودتي حل لمشكلتك، وغادرها وهو يقول لها: أسأل الله أن يلهمك الصبر، ويحميك من غوائل الدهر..

تَعلَّقَ بصر أم سليم بعبد الرحيم وهي تتابعه ببصرها منذ غادرها حتى عاد إليها، وفي يده بضع ليرات لم تكن تحلم بمثلها في محنتها، ووضعها في يدها ثم قال لها: هذا المبلغ يكفيك سحابة هذا الشهر، وأرجو ألاَّ تقصدي أحداً بعد الآن، لأني سأتكفل بإعالتك وأولادك ما دمت حياً، وأخذ عنوان دارها، وعرف مكانه على التحديد.

ولم يكد يستقر المبلغ في كفها حتى توجهت نحو قبلة المسجد الذي تقف أمامه ورفعت يديها إلى السماء، ودموعها تنهمر من مآقيها بدعاء فيه من الصدق والشكر والامتنان، والرجاء بالتضرع إلى الله أن يحفظ لهذا المعطي الكريم صحته وأولاده وأهله، ويكافئه على عطائه الأجرَ والثواب العظيم..

وكَأنَّ دعاءها البسيط الذي ليس فيه شيء من البلاغة والإتقان والكلام المنمق الذي انطلق من صميم جوارحها عبر الخاطر أشعره بالاطمئنان، فوجد له في نفسه حلاوة وطلاوة قَلَّ نظيرهما في دعاء من شخص لآخر، وكأنه بلسم للشفاء، فَأَمَّنَ عليه خلفها وهو يقول من صميم فؤاده: آمين، ويرجو الاستجابة.

ومن غريب الأمور أن عبد الرحيم كان قد تغلغل في جسده مرض السرطان الخبيث، وأجمع الأطباء المداوون أن أيامه حسب تقديرهم باتت معدودة، وقد لا تتجاوز الشهور الأربعة، فنفضوا أيديهم من الدواء الذي لم يعد يفيد، وتركوهُ يعيش أيامه الباقية على هواه دون تدخل منهم..

عاد عبد الرحيم إلى داره وخيال المرأة لا يغادره، ومأساتها لا تفارقه، ولكن الشيء الغريب الذي أحسَّ به هو قوة في كيانه بعد ضعف لازمه، ونشاط في جسده لم يشعر به منذ مدة طويلة، وشهية إلى الطعام كانت قد غادرته حقبةً طويلةً منذ أن تمكن المرض من بدنه، وتساءل في نفسه إزاء هذا التبدل عن مصدر هذه الطاقة المفاجئة..! غير أنه من الناس البسطاء الطيبين الذين يؤمنون بقدرة الله، واستجابته لصادق الدعاء النابع من قلب عامر بالإيمان، فاستقر في عمق أعماقه أن دعاء المرأة البائسة الذي انفجر من جوارحها الطاهرة بصدق الإيمان وحرارة اليقين كان السببَ فيما أحس به ولا شيء سواه..

مَرَّ الشهر على هذا الموقف وتلته الشهور الأربعة التي حددها الأطباء للإبقاء على حياته، ولم يحدث أي شيء من المتوقع، بل أصبح عبد الرحيم معافى في بدنه وفي صحة بعيدة عن آلام المرض ومنغصاته، واستمر عبد الرحيم على عهده مسعفاً لهذه الأسرة من دون تردد، وظل الأمر كذلك سبع عشرة سنة لم ينقطع عبد الرحيم في خلالها عن عطائه إلى أم سليم الذي يوصله إليها بنفسه، هاشاً باشاً مطمئناً على حال المرأة والأولاد.

بيد أنه بعد هذه المدة الطويلة توقف العطاء فجأة، ولم تدر أم سليم سبباً لهذا الانقطاع، وهو الذي لم ينقطع يوماً قط، وراحت تعلله بأسباب كثيرة كالسفر والمرض وما سواهما، وهي التي لم تكن تعرف عن مرضه شيئاً، كما لم تعد بحاجة ماسة إلى المساعدة وقد وقفت – كما يقال – على رجليها، فتركت الأمر كعادتها مستسلمة لله الذي بمشيئته تُدَبّرُ الأمور..

وحقيقة الأمر أن هذه المرأة الحَصان أحسنت تربية أولادها، ولم تجعل الفقر وسيلة للعزوف عن العلم والمعرفة، فرعتهم خير رعاية وبذلت شبابها وجهدها في سبيلهم؛ ليكونوا عنصراً نافعاً في كيان الأمة، لقد كبر أولادها؛ فسليم تخرج مهندساً وانتظم في وظائف الدولة، وفريد تخرج من دار المعلمين أستاذاً وعمل في وزارة التربية، وابنتها عفاف تزوجت من شاب نشيط خلوق آلى على نفسه رعايتها وإكرامها، ولم يبق لديها سوى رهف التي تتابع دراستها الثانوية وهي على وشْكِ الزواج عندما يحين النصيب.

وفي عصر يوم من أيام رمضان المبارك طُرِقَ بابها وانفرج عن شاب عَرَّفها بنفسه أنه ابن عبد الرحيم، فرحبت به أجمل ترحيب، واستوضحته بلهفة بالغة قبل كل شيء عن أبيه فلم يجبها، ولكنه مَدَّ يده برزمة كبيرة من المال قدمها إليها، فأجفلت مرتاعة، وبأدب بالغ تعففت عن تناولها وقالت له: لم أعد بحاجة إلى المال، وقد رعانا والدك حتى أمس قريب، كما أن الأولاد كبروا، وَدَرَّ المال، فأرجوك أن تعيده إلى الوالد العظيم الذي أنقذنا من الضياع، وحمانا سنين طويلة من العوز والفاقة..

وهنا، وبتأثر بالغ، قال لها الشاب: يؤسفني أن أبلغك أن والدي انتقل إلى رحمة الله منذ شهرين، وقد وَصَّى لك في وصيته المكتوبة بهذا المال الحلال، ولا يمكنني بحال من الأحوال أن أعيده إليه؛ فوصيته واجبة التنفيذ، وليس عليك سوى الدعاء له بالرحمة والغفران.

فبكت أم سليم وأجهشت بالبكاء، وانصرف الشاب يذرف دموعه تأثُّراً وقد نَفَّذَ الوصية.

جرعة ماء

فأقضي سحابة اليوم تحت أشعة الشمس اللاهبة في الجبال والوهاد حتى أصل سفح جبل قاسيون المطل على حي المهاجرين من جهة دمشق الغربية.

درج سكان دمشق على عادة الترحيب بالوافد الجديد؛ سواء أفتح متجراً أم اشترى مسكناً، فيجتمع أقرب الجوار إليه للقيام بزيارته وتهنئته أو التعرف عليه وإيناسه، واستمرت هذه العادة أجيالاً كثيرة، غير أن توسع العمران، وازدياد عدد السكان، وتعاقب السنين جعلها تفقد حدتها، وتضعف شدتها شيئاً فشيئاً، ولا أخال أنها ستستمر طويلاً..

ويسعدني أن نشأت في أسرة وبيئة تقدسان هذه العادة استمراراً لسلوك جدي ومن بعده والدي، حتى باتت جزءاً من تقاليدنا في دارنا، وجدير بالذكر أن أول من يشعر بحلول الساكن الجديد نساء الجوار من خلال الحديث الذي يدور في اجتماعاتهن وزياراتهن..

وكان أن عدت ذات مساء من عملي وأويت إلى داري حيث تناولت طعام العشاء، وفي أثناء استرخائي وأنا أشرب الشاي أنبئت في حديث السمر العائلي الذي يدور قبل النوم أن الشقة المقابلة لدارنا قد بيعت منذ أيام بمبلغ ثلاثة وثلاثين ألف ليرة سورية، وهو مبلغ كبير في ذلك الزمان، وانتقل إليها الساكن الجديد عصر ذلك اليوم..

غادرت داري صباحاً في طريقي إلى عملي فالتقيت بالساكن الجديد وجهاً لوجه وهو يهم بالخروج من داره، فحياني وحييته أجمل تحية، وأهَّلت به على القاعدة المألوفة بين الجوار، وانطلقت في سبيلي، بيد أن صورة هذا الجار ظلت عالقة في ذهني، تدور في عمق ناظري، وقد أخذت تزداد وضوحاً حين برزت من أعماقي فكرة حازمة قوية تؤكد لي معرفتي بهذا الرجل، وأخذت أبحث بإصرار عن مصدر معرفتي به وأسأل نفسي متى حدث ذلك..؟ وكيف كان..؟ ومن هذا الرجل..؟ وما المناسبة التي تعرفت فيها إليه؟ وغير ذلك من الأسئلة؛ فلم أهتد إلى جواب..

وأخيراً قلت في نفسي: مالي وماله حتى أرهق فكري، وأتعب أعصابي في أمر لا طائلة تحته؟ وليكن أني أعرفه أو لا أعرفه، فما يجدي هذا الأمر وهو جار فحسب؛ تفصله عنا وتفصلنا عنه جدران منزلينا؟

وفي الوقت الذي قدَّرت فيه أن الجار قد أنهى ترتيب داره، وأصبح في وضع وراحة تمكنانه من استقبال الزوار المهنئين، أخبرته عن طريق ولدي بأمر زيارته، فرحب بها أوفر ترحيب، وأنه ينتظرها بفارغ الصبر..

وتمت الزيارة على أحسن وجه، ومن الطبيعي أني رجوت له طيب الإقامة بين ظهرانينا، فتهللت أساريره ورد شاكراً، واسترسلنا في الحديث، والحديث ذو شجون، ولما لمست منه سعة الصدر وشفافية الدخيلة، ذكرت له أنه دار في خَلَدي منذ التقيت به صباح يوم مضى، أن صورته صافحت عيني يوماً، ولكن غاب عني متى كان ذلك وكيف كان..

وإذا بهذا الجار وهو في سن تجاوز فيها حسب تقديري سبعين من السنين يتهيب في جلسته، ويلبس وجهه لباس الجد، ويضفي على كلامه وقار من يود أن يبوح بسر ثقيل فقال: صحيح ما تذكر يا بني، وقد كان ذلك منذ عشر سنوات على وجه التحديد..

قلت كالمشدوه: كيف كان..؟ وأين كان..؟

فقال: على رسلك، سأروي لك بهدوء، والليل طويل، تفصيلَ هذا اللقاء وما كان من أمره قبلاً وبعداً، وقبل ذلك أُقر بفضلك عليَّ يا بني..

فقلت: فضلي أنا..؟

فقال: نعم بفضلك أنت علي..

فلم أعلق على قوله وكأنه زاد الأمر تعقيداً..

ثم أردف قائلاً: لقد تفَضَّلْتَ عليَّ في يوم من أيام أيلول كان شديد الحرارة، بجرعة ماء ما زال ريها حتى الساعة يروي كل ذرة من ذرات جسدي وروحي..

قلت مستغرباً: أنا..؟

فأجاب: نعم أنت، ألا تذكر يا بني منذ عشر سنين بائع تين أشعث أغبر، يلبس سترة عسكرية عتيقة لا تستحق مساومة البيع والشراء، يحمل عكازاً في يده ويجر حماراً أضناه تعب المسير تحت وطأة الحمل الثقيل وشمس الصيف المحرقة..

– قد أذكر ذلك عبر ضباب السنين..!

– أنا هو بائع التين الذي انقلب به الحال وانتقل من بأساء العيش إلى سرائه ونعمائه..

– وكيف كان ذلك..؟

– لا تعجل يا بني، فأنا كنت أجمع التين من قريتي في تلال سوق وادي بردى، فأستيقظ مع الفجر تاركاً كوخي وزريبة الحمار، وما أقرب الشبه بينهما! وأسير عبر المسالك الوعرة حيث لا يستر جسدي سوى السترة التي حدثتك عنها وسروالٍ يكشف من جسدي أكثر مما يستر، وحذاء مهترئٍ لا يُعرف له شكل أو مصدر، فأقضي سحابة اليوم تحت أشعة الشمس اللاهبة في الجبال والوهاد، حتى أصل سفح جبل قاسيون المطل على حي المهاجرين من جهة دمشق الغربية وأنا منهك القوى، يكاد لساني لا يدور في فمي عطشاً، وليس ثمةَ ما يروي الظمأ..

وكان أن اشتريت أنت مني تيناً دون أن تناقشني السعر، وتكرمت علي بجرعة ماء بللت بها لساني الجاف وحلقي الناشف عبر قارورة ماء كانت في جهاز التبريد المنزلي باردة سائغة، فأخذت تملأ لي الكأس تلو الكأس وأنا أفرغه في حلقي دفعة واحدة، حتى إذا ارتويت قلت بعدها: الحمد لله رب العالمين على هذه النعمة، وانصرفت لشأني..

كنت وقتها أعيش مأساة بؤسي؛ إذ توفي ولدي الوحيد في شرخ الشباب وخلَّف وراءه زوجة وأربعة أولاد أكبرهم لم يتجاوز العاشرة، ولم يترك لهم ما يعينهم على العيش الكفاف، فاضطررت إلى العمل الشاق، وأنا في سن آن لها أن تخلد إلى الراحة وتستريح..

ثم صمت برهة استرد فيها أنفاسه وقال: لقد ذكرت لك يا جاري الكريم الجانب المظلم والمأساوي من حياتي، وقد أكون آذيتك بسماع ما ذكرت، ولكن الذي جرني لهذا الحديث جرعة الماء التي لا أنسى طعمها وريَّها في عروقي حتى أودع آخر نفس من أنفاسي، وجدير بي أن أطلعك على الجانب المشرق الذي غير مجرى حياتي إذا لم يضايقك..؟

– لا؛ أبداً فكلي آذان صاغية..

– لقد كان لي أخ يصغرني بثلاث سنوات، سمع بالهجرة إلى أمريكة منذ أربعين سنة، وأنها بلاد بكر يجني فيها الإنسان خلال مدة وجيزة ثروة تغنيه في حياته، وكانت أحاديث الهجرة تدور في اجتماع كل أسرة وفي كل مجتمع، فتفتحت نفسه للهجرة وهاجر يحمل الآمال العراض، على المحاولات العديدة التي قمنا بها لثنيه عن ذلك فلم يقبل، وهاجر واستقر في مدينة (سانت باولو)، وقد علمت من بعض رسائله التي كان يراسلنا بها أحياناً أنه كافح كفاحاً مريراً في سبيل العيش، وقد جعل همه الوحيد جمع الثروة ليعود إلى بلده ثرياً يعيش عيشة ناعمة رضية، فلا يجد لذة إلا بما يجمع من المال، ولا هواية إلا بتثميره حتى أصبح ثرياً مرموقاً، وقد عزف عن الزوجة والولد فلم يكن له من يشاركه في أمرها، وكانت آخر رسالة تلقيتها منه أنه يصفي أوضاعه في المهجر وسيعود إلى قريته ليعيش فيها كريماً محترماً. ثم انقطعت رسائله عني ردحاً من الزمن، إلى أن وصلني إشعار من المفوضية البرازيلية في دمشق؛ تذكر لي فيه ضرورة مراجعتها للعمل على استلام الثروة والمستندات التي خلفها هناك. ولما كنت أميّاً لا أعرف القراءة والكتابة، فقد استعنت بمحامٍ شريف ساعدني على مراجعة المفوضية وتقديم الوثائق والمستندات التي تؤكد القرابة، وأنه لا وارث له سواي، ولما استوثقتْ تلك الجهة من شخصي قدمت إلي صكاً (شكاً) بمبلغ أربع مئة ألف ليرة سورية، بعد أن تم اقتطاع النفقات والضرائب، وخشيت حينها على هذا المال الوفير أن يسرق فوضعته، بإرشاد المحامي، في أحد المصارف.

وصمت برهة ثم عاود القول: لقد كان أول ما خطر ببالي وتبادر إلى ذهني قارورة الماء البارد التي روت العطشان منذ عشر سنين، فآليت على نفسي أن أبذل المستحيل حتى أسكن في بيت كان لجواره الفضل في إرواء ظمئي وأنا فقير معدم لا أملك شيئاً من حطام الدنيا سوى حماري وكوخي وزريبة الحمار..

وظللت مدة طويلة أختلف إلى حيكم، حتى تسنى لي شراء هذه الدار المجاورة لداركم فاشتريتها بثمن مرتفع إكراماً لحادث الماء، ولا أخفيك أني توسعت أيضاً في قريتي فاشتريت من أراضيها ما أرضى طموحي، كما بنيت داراً جميلة أثثتها بأحسن الأثاث وهيأتها للعيش الناعم في

فصل الصيف أكافئ نفسي فيها بعد الكفاح الطويل، وتركت قريتي التي طويت تحت ترابها غدران عرقي المتصبب بالجهد والنصب، وتاريخ حياتي الطويل المفعم بالآلام والحرمان، وودعت معها شظف العيش ومرارة ضيق اليد، كما هيأت لأرملة ابني وأحفادي ما يكفلُ لهم حياة كريمة، ومستقبلاً زاهراً لا بؤس فيه ولا شقاء؛ كي أعوضهم بهما عما خسرته أنا نفسي من علم ومعرفة؛ ليكونوا أسوياء صالحين في مجتمع متقدم.

– فقلت له: وماذا بعد..؟

– فأجاب: إن الذي بعده أن كل ما ذكرته لك لا يساوي جرعة الماء البارد في اليوم القائظ التي روت ظمأ عروقي وجسدي..

القُبْعُ والمُقَبّعَة

حتى اجتزنا طريق سوق مدحت باشا إلى حي الشاغور بالقرب من الباب الأثري المعروف بباب الحديد..

كنت صغيراً لم أتجاوز السادسة من عمري حين انتقلت إليَّ عدوى مرض يعرف شعبياً باسم (القرعة) يستبيح حِمَى شعر الرأس فيمسحه من جلدة الرأس مسحاً فلا يبقي ولا يذر، ومن مكره أنه يتسلل إلى فروة الرأس تحت غطاء من السكون، فلا يبدأ عمله بالألم الذي يشعر الإنسان بحدوثه فيأخذ أهبته، ويبادر إلى مراجعة الأطباء للمعالجة، والشيء الوحيد الذي يقدمه سوء المنظر من خلو الرأس من الشعر، وقد علمت حين كبرت أن هذا المرض شائع في قرية قريبة من دمشق تسمى (حَزَّة) إذ بات أكثر سكانها من القرعان..

تداولني الأطباء في الثلث الأول من القرن المنصرم، وأمضيت أياماً أنتقل فيها من عيادة إلى عيادة، ومن طبيب إلى طبيب حين لم يكن التخصص شائعاً بين الأطباء، يصفون أنواعاً منوعة من المراهم والمعقمات كانت تذهب هدراً من دون أي فائدة تذكر، وفوق ذلك لم أنج من سخرية القرناء، سواء أكانوا من الأقرباء أم من أولاد الجوار، وقد شكل ذلك في نفسي كما يسمونه اليوم عقدة نفسية كانت ستستمر زمناً طويلاً لولا عناية الله، فصرت أبتعد ما أمكنني عن مجالس الأهل، وأتوارى عن أنظار الناس في الأماكن العامة، وفي الطرقات، مع أنه ليست لي أي يد في إصابتي بهذا المرض المؤذي لنفسي وجسدي..

كنتُ أحسُّ ببعض العيون التي تنظر إليَّ بالشفقة والأسى مما أكابده وكأنها تقول لي سراً وهي ترثي لحالي: نأسف كل الأسف لأنه ليس بأيدينا شفاؤك، ولا حيلة لنا في مد يد العون إلى طفولتك البائسة لإنقاذك مما أنت فيه، وبدهي أنني لم أكن في ذلك الوقت على دراية ونضج لأفسر نظرات تلك العيون بما ذكرت، بيد أني الآن أستعيدها في ذاكرتي فأحس بها هذا الإحساس..

كانت امرأة أبي التي حلت محل أمي بعد وفاتها هي التي تأخذني إلى الأطباء وتُعنى بشؤوني بشيء يسير من العطف والحنان.. وللإنصاف أقول: إنها كانت تتألم لمنظري، وتأسى لحالي، ولا تفوّتُ أي وصفة وصفت لي فيها الأمل بالشفاء إلا وتبادرُ إليها بلهفة واندفاع، ولسان حالها يقول عسى أن يكون فيها الشفاء..

وحتى اليوم لا أدري كيف نقل إليها أو اتصل بعلمها أن امرأة في حي الشاغور من أحياء دمشق العريقة تتعاطى علاج القرعة بوسائلها الخاصة مهما كان شأنها؛ سواء أكانت في مراحلها الأولى أم مضى عليها مدة طويلة..

ذكرَتْ ذلك لأبي ليلاً وعلى مسمع مني، واستأذنته في المضي إليها صباح الغد عسى أن يكون الشفاء على يديها بعد أن فرغ الأطباء من كل وسائلهم وعلمهم، فلم يمانع، بل ووافق على ذهابي للتداوي.

ومع بزوغ فجر اليوم التالي تأهبنا للذهاب، فألبستني امرأة أبي ثياب العيد، وأمسكت بمعصمي وسلكت بي طريقاً طويلة من حارات دمشق التي تستقيم حيناً، وتلتوي أو تتعرج حيناً آخر، تلفحنا الشمس آناً ونمر في ظلمة مكان آخر آونة أخرى، ولا يزال ينطبع في مخيلتي سوق الصاغة، وسوق البزورية اللذان مررنا بهما، حتى اجتزنا طريق سوق مدحت باشا إلى حي الشاغور بالقرب من الباب الأثري المعروف بباب الحديد، حيث أخرجت امرأة أبي من حافظتها ورقة صغيرة خط عليها عبارة لا أدري وقتها ما هي، تعرضها على بعض المارة من الرجال المسنين حيث كان منهم من يأسف بحركة من يديه وشفتيه، ومنهم من يشير إلى مكان قريب محدد، وقد عرفت فيما بعد أن الورقة فيها عنوان دار الطبيبة (المقبعة) وقد تبرع مشكوراً رجل مهيب بمرافقتنا للدلالة على الدار المقصودة..

طرقت امرأة أبي الباب بالمطرقة التي كانت من لوازم أبواب الدور طرقات متتالية، وانتظرت حتى سمعت صوت امرأةٍ من خلف الباب يسأَل عن الطارق، وحين علمت أن الطارق امرأة شقت الباب قليلاً للتأكد، ثم أفسحت المجال لدخولنا، وسارت بنا إلى غرفة كبيرة كانت تعرف ذلك الزمان باسم (قاعة) وقد فرشت بفراش عربي يدور مع جدرانها، مؤلفٍ من الحشايا والوسائد؛ ومدت أرضها بالسجاد العجمي، وقد رحبت بنا ترحيباً لائقاً، ولكن نفسي اضطربت لمنظرها؛ فقد كانت امرأة مسنة شمطاء، شعرها كثيف غير مصفف مصبوغ بالحناء الحمراء، كما أن فمها فارغ من الأسنان إلا من بعضها، ولما استوضحت عن سبب الزيارة أعلمتها امرأة أبي بقصدنا وأننا دُللنا عليها ممن يعرفها، فردت بقولها: على عيني، ولكن لا بد من شرب القهوة أولاً، ألقت هذه العبارة وذهبت لشأنها..

مكثنا برهة طويلة حتى أتت بالقهوة فشربتاها، وقدمت إليَّ قطعة من سكر ملون بعد أن ربتت على كتفي ووصفتني بالبطل.. ولم أكن أدري سبب هذا الإطراء.. حتى إذا فرغتا من شرب القهوة استأذنت المقبعة برهة لإعداد العلاج، وأخذت تدخل غرفتنا وتخرج منها مرات عديدة، حتى تم لها ما أعدته، ثم أقبلت نحوي قائلة: لا تخف يا صغيري كما قلت لك أنت بطل.. وسوف أضع على رأسك مرهماً أسود ساخناً عدة أيام، يخرج بعدها شعر طويل أو متجعد جميل. ألا تحب الشعر الكثيف..؟

لم أجبها وظللت صامتاً لا أتكلم في انتظار ما سيكون..

وحين أيقنت العجوز أن العلاج أصبح ملائماً، وأن العمل غدا لازماً؛ نزعت الغطاء عن رأسي ومسحته بمادة كالماء لا أدري طبعاً ما هي، ولكنها لم تزعجني، ثم أحضرت قطعة كثيفة من قماش أبيض سميك ووعاء يبدو ساخناً فيه مرهم أسود، عرفت فيما بعد أنه الزفت بعينه وقد عالجته بالحرارة حتى أصبح ليناً طيعاً، فمدته بعناية على القماش على مرأى مني، ثم ألصقته على رأسي فبكيت من سخونته وأجهشت بالبكاء، ولكن سخونته لم تدم طويلاً، بل سرعان ما اعتدلت وأصبحت مألوفة لا إزعاج منها..

حتى إذا انتهت المداواة شكرتها امرأة أبي وأملت مخلصة أن يكون الشفاء العاجل على يديها، ودعت لها بطول العمر بعد أن دست في يدها شيئاً من المال وأخذت موعداً لاحقاً لمتابعة العلاج..

عدنا أدراجنا إلى الدار والقبع قد التصق بجلدة رأسي حتى أصبح جزءاً منها، وفي طريق العودة اشترت لي امرأة أبي شيئاً من الحلوى والمكسرات التي يشتهر بها سوق البزورية القريب من حي الشاغور.

وفي الدار سردت لوالدي رحلة الاستطباب وما وضعته المقبعة على رأسي، وابتهلت ووالدي بالدعاء إلى الله أن يكون الشفاء حليف المقبعة وإن كان هذا النوع من الطب لم يسمعا به قبلاً.

ويمر الأسبوع حين أجد نفسي من جديد وجهاً لوجه أمام العجوز المقبعة، وندخل القاعة نفسها، ولكنها هذه المرة لم تستأذن امرأة أبي لإعداد فنجان القهوة، بل وجهت أنظارها إليَّ ثم اقتربت مني وأنا خائف منها، ونزعت الكوفية التي أغطي بها القبع عن رأسي، ورازته بأناملها العجاف المتصلبة، ثم وجهت الحديث إلى امرأة أبي: لا بأس فالوضع جيد، وسأنزعه الآن وهو مؤلم، وعليك أن تساعديني بالإمساك بابنك حتى لا يفلت من بين يدي وأنا أقوم بمهمتي، فأجابتها: لا عليك؛ فابني بطل، وسترين ذلك بنفسك، وأمسكت بي بكل قوتها حتى لا أتحرك أو أنطلق هارباً..

بدأت المقبعة بنزع أطراف القبع الملتصق بجلدة الرأس من فوق الجبهة؛ فاقتلعت منه مساحة قليلة تمكنها من الإمساك بها بأصابعها؛ ثم توجهت إلى الخلف فنزعت مساحة مثلها والألم يعتصرني، ولكن كل ذلك لم يكن من الشدة التي أخذت فيها تنتزعه من سائر رأسي وكأنها النَّزَّاعَة للشوى التي ذكرها القرآن الكريم في سورة المعارج، ولا أظن أن ألماً من الآلام التي يعانيها الإنسان في حياته يرتقي إلى مستوى الألم الذي كابدته وهي تنتزع القبع بقسوتها وجبروتها، ومن دون أن يحركها بكائي وصراخي الذي يصك السمع، ودموعي التي تنهمر كالسيل، تردفها دموع امرأة أبي التي تتساقط على وجهي من شدة تأثرها وإحساسها بمعاناتي لألم يعجز عن تحمله صناديد الرجال، وتحاول تهدئتي وهي تمسكني بكل قوتها. حتى إذا انتهت هذه المأساة وتخلصت من يدي المقبعة التي لم تتحرك أساريرها لإغاثتي واستنجادي حاولت أن أطلق ساقيَّ للريح وأنجو بجسدي فراراً من هذا الجحيم، ولكن لم يكن من منفذ؛ فالأبواب موصدة والخلاص عسير، وأذكر أن المقبعة أكرمتني بكأس بارد من عرق السوس تجرعته بنهم لأطفئ ظمأ البركان الذي تأجج في صدري.

لقد حسبت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكن الأمر لم يكن كما قدرت، ولم يكن من مندوحة لإعادة القبع المشبع بالزفت الساخن ونزعه مرة تلو مرة على مدى شهرين متتابعين ولا يعلم إلا الله الرحيم كم قاسيت وتحملت..

بيد أن الشيء الذي كان يعوضني خلال شهري العلاج حفنة من السكاكر والمكسرات المنوعة التي تبهج العين من خلال عرضها في سوق البزورية الذي يشتهر بها، ويترك لي أن اختار منها ما أشاء.

وبعد شهرين من المعاناة استلمت الشهادة التي – وقد عجز الطب الحديث بكل وسائله ومهاراته عن شفاء قرعتي– نجحت المقبعة الشمطاء ذات الشعر المحنّى، وقسماتِ الوجه القاسية، والأنامل الحديدية، والقلب الذي قُدَّ من حجر في أن تفوز بها، فقد نبت شعر رأسي جعداً كثيفاً وأصبح مجال الحسد والتمني من كل من عاصر أحداثه أن يحظى بمثله، وقد رافقني مزيّناً شيخوختي، مدفئاً رأسي حتى اليوم.

قرصا كبَّة

اختلف القوم الذين يسكنون ويعملون في سوق القوافين بدمشق حول هذا الهابط عليهم منذ مدة غير طويلة، يجوب سوقهم بخطوات بطيئة

اختلف القوم الذين يسكنون ويعملون في سوق القوافين بدمشق حول هذا الهابط عليهم منذ مدة غير طويلة، يجوب سوقهم بخطوات بطيئة، ويطرق الأرض بعصاه الغليظة ولا يستثني الجدران أيضاً، وهو نحيل الجسد يلتف بمعطف سميك يلبسه شتاء ولا يغادره صيفاً، يمشي الهوينى وهو يردد بصوت أجش كلمتين: (كلُّه منُّه) ولا يزيد. كما تعب الناس في معرفة من هو/ سهلان/ ولا من أطلق عليه هذا الاسم، وحار العقلاء في استكناه دخيلته، وكشف أمره، فهو يطوف نهاراً ولا يملّ من تكرار عبارة (كلُّه منه)؛ حتى إذا سأله سائل: من أنت..؟ فلا يزيد على الكلمتين المذكورتين شيئاً..

وكان اختلاف رجال الأعمال حول سهلان أن بعضهم يحسبونه من المعتوهين الذين يطوفون الأسواق للتكسب والابتزاز مع أنه لا يمد يده، ولا يطلب شيئاً؛ وإنما يأخذ ما يعطى، ولا يرفض رفداً صغيراً أو كبيراً، وكان الشكر عليه بترداد كلمة كله منه..

وبعضهم الآخر رأى فيه رأياً مخالفاً تماماً، وأصَرَّ بتأكيد لا دليل عليه أن سهلان رجل مبارك ذو نزعة صوفية، يمتد حبله نحو المتصوفين والأتقياء الزاهدين المرتبطين بحبل الله المتين، ومن صفاته أنه مقبول الوجه، كثيف الشعر، نظيف الثياب، قليل الكلام، لا يرد على الإساءة بمثلها، سواء أكانت من المارة أم من الصبيان الصغار، فإذا وجهت إليه كلمة سب أو شتم أو تهكم يرد عليها بالكلمة المعهودة (كله منه).

وسهلان هذا في العقد الخامس حسب تقديرهم لتعذر الاطلاع على شهادة الميلاد، وكثيراً ما تساءل الناس عن أصل هذا الرجل، وكيف أَمَّ ديارهم وحَلَّ بين ظهرانيهم، واندمج في أسواقهم حتى أصبح شيئاً منها لا يمر يوم دون تردده وتسكعه، وهو بين صنفين من الناس؛ صنف يستضيفه ويعطف عليه ويأمل أن يطلب منه أي شيء لتحل البركة عليه، وتتجلى النعمة على حياته.. وآخر يرفضه ولا يستسيغه ويود التخلص منه، ولكنه مع كل هذا التباين الذي يواجهه لا يغيب عن أسواقهم، ولا يغادر ساحاتهم، حتى أصبح مع الأيام جزءاً ثابتاً من الأجزاء القائمة، وكياناً هاماً يفتقده بعضٌ ممن يرى فيه دلائل البركة ومعالم الصفاء..

ومن صفات سهلان أنه كان يحب الأطفال، ويخفض لهم جناح الرحمة والعطف من نفسه؛ فيبتسم في وجوههم، على إساءاتهم إليه والتهكم به، والعبث بشخصه وقذفه ببعض المكسرات والحاجات الصغيرة من الأشياء الخفيفة التي لا تسبب له أي أذى لإثارته وإغضابه، ويرددون كلمته المعهودة التي لا يمل من ترادها (كله منه)..

وجدير بالذكر أن بعض من كان قلبه سماوياً متعلقاً بجلال الطاعة لله يجد فيه البركة والصوفية غير المعلنة، فيزداد التزاماً به ويسخو عليه بالفاكهة الطازجة، وبشيء من الزاد الدسم طلباً لرضائه والتودد إليه؛ ليخصه بالدعاء الذي لا يفهم منه وهو يغمغم به سوى كلمة (كله منه)، فيجد في هاتين الكلمتين على بساطتهما من قوة التعبير وجلال الصدق وروعة الإحساس ما لا حد له في قلبه وسريرته..

ومن الصنف الآخر من الذين قُدَّت قلوبهم من قسوة، وجبلت نفوسهم على حب التعالي على الناس، والنفور من أمثال هذا الإنسان الذي يمر بهم يومياً التاجر (مهدي)؛ فهو يتأفف منه ويرى فيه معتوهاً غير مرغوب فيه؛ يشيح بوجهه عنه، ويسخر ممن يكرمه ويعطف عليه، كما يتبرم من وجوده في السوق ويراه ثقلاً على المجتمع لا فائدة منه، ويرجو بكل قوة أن يصرفه عن التجول في هذا السوق الذي تقوم فيه دكانه الواسعة التي يمتهن فيها بيع القماش المنوع... ولكن كيف له أن يصرفه عن التجول وهو واحد من رجال كثر، وتجار كبار يرون فيه غير ما يرى، ويشعرون نحوه بالشفقة والرأفة غير ما يشعر، ويرجون لو يعطف عليهم بالدعاء إلى الله أن يسعدهم ويلبي حاجاتهم المختلفة، ويعطيَ كلاً منهم سؤله في هذه الحياة بشعور خفي يخيل إليهم فيه أن هذا الإنسان مبارك، وصلته بالله لا شك شديدة، ودعاؤه مستجاب مقبول عند رب العالمين، وأن قوله (كله منه) فُسِّر من قبلهم على أن كل شيء من الله، ولا سبيل لإنسان أن يفعل شيئاً لا يريده الله، وسوى ذلك من الاعتقاد ببركته واستجابة دعائه..

وبات على الأيام يفكر في الطريق الذي يوصله إلى الخلاص من سهلان، وكان كلما مَرَّ يوم من الأيام ازداد نحوه كرهاً وبغضاً، وكثيراً ما تشاجر مع بعض زملائه في السوق لهذا السبب..

كان مهدي من بين هؤلاء الذين لا يكتالون بهذا الكيل، ولا يؤمنون ببركة مثل هؤلاء الأشخاص، ولا يرون أن الله قادر على أن يضع بعض كراماته في أضعف خلقه تفضلاً منه على عبده، فوضع نصب عينيه محاربة سهلان بكل الوسائل المتاحة، وتحقيقاً لهذا الهدف صَمَّمَ على ملاحقته واستطلاع أوجه نشاطه، وقبل كل شيء أن يعرف أين يأوي، ومن هم أقرانه إذا ما كان له قرناء يسلكون الطريق نفسه، وهل حاله تظاهر أم أن فيه شيئاً من الصدق..، وإزاء ذلك تعقبه

مساءً بعد أن أغلقت الحوانيت وانصرف أصحابها إلى دورهم وأسرهم حتى استقر به المطاف وهو يلاحقه إلى دخوله فناء مسجد قديم في حي شعبي من دمشق، وكان الوقت صيفاً فافترش أرض زاوية من زوايا الساحة المسقوفة، ووضع حذاءه وسادةً تحت رأسه واستسلم إلى نومه وأحلامه..

ولما أتم مهدي مسعاه عاد إلى داره وفي قرارة نفسه التصميم على التخلص من سهلان مهما كانت الأسباب، ولو ارتكب جناية بسببه؛ للضغينة التي تعتمل في قلبه احتساباً للشيطان..

تقلب مهدي في فراشه لا يستقر على جنب؛ يصارع الأرق ويجهد فكره في الوسيلة الناجحة للتخلص من هذا العدو الذي لا يكن له أي عداوة؛ فاستعرض خططاً متعددة كلما اعتمد واحدة منها ووجد فيها سبباً للإخفاق اعتمد خطة أخرى توصله إلى نتيجة حاسمة لا مجال للإخفاق فيها..

قام من نومه باكراً لا يلوي على شيء، تدمع عيناه من أثر السهر والأرق غبَّ ليلة ليلاء لم يغمض له فيها جفن، أو يغفو غفوة واحدة تريح جسده المنهك، وانطلق إلى السوق لجلب لوازم صنع الكبة المشوية وموادِّها المؤلفة من اللحم والبرغل والجوز والدهن والبهار، والتي هي من الطعام المفضل في بلاد الشام، وطلب من زوجه أن تخصه بقرصين كبيرين يهديهما إلى فقير معدم احتساباً لله، من دون أن يذكر لها ما خططه عن طريقهما... وما إن صنعتهما له حتى انطلق بهما إلى دكانه ينتظر مرور سهلان؛ ليقدمهما إليه بعد أن دَسَّ فيهما كمية من السم توازن حقده وكرهه لهذا الإنسان، وبذلك يكون قد تخلص منه إلى الأبد، وما ثمَّة دليل يدل عليه..

مَرَّ اليوم الثاني على إهدائه قرصي الكبة إلى سهلان، وتبعه يوم آخر ومهدي غارق في حزن عميق أفقده صوابه، وتركه في داره يَجْتَرُّ أحزانه بفقده ولدين كانا ريحانة عمره، ودرة آماله، ومناط مستقبله، وقد ماتا بتسمم من طعام لم يعرف مصدره ولا من أي مكان تناولاه عند خروجهما من مدرستهما، فاستسلم وزوجه لقضاء الله وقدره..

ومن رحمة الله أن المصيبة مهما كبرت فهي تصغر على مرور الساعات والأيام، وتتبرع الشهور بلفها برداء النسيان، وهذا من فضل الله على العباد؛ لأنه لو استمر الإنسان في الحزن والألم فإنّ المصيبة تقضي عليه مهما كان جلداً متذرعاً بالصبر والاحتساب..

ويعود مهدي إلى دكانه بعد مرور شهر من فقد ولديه حزيناً كئيباً، يائساً من الحياة التي لم يعد لها أي طعم في فمه، بل أصبح مذاقها مُرّاً لا يطاق، ولكنه على غير قصد منه، وعفوَ الخاطر، مَرَّ بذهنه سهلان وكيف قضى عليه بالكبة المسمومة...

ولما كان الحزن والمصيبة يرققان القلوب، ويحدان من طغيان الشر وعنفوانه، فقد آلى على نفسه ألاَّ يعود إلى تكرار هذا العمل مهما كانت الأسباب الداعية إليه، حتى ولو كان المقصود عدواً حاقداً..

وفي الوقت الذي كانت تمر بذهنه هذه الأحداث لمح من بعيد شخصاً يشبه سهلان، ولكنَّ سهلان أصبح في ذمة الله.. فمن يكون هذا الذي يشبهه..؟ وفرك عينيه بأصابعه المتجلدة ليحد البصر في القادم نحوه في خطا بطيئة تشبه خطا سهلان وعصاه الغليظة، ولم يكد يقترب منه

حتى وجد به سهلان نفسه، فأذهلته المفاجأة، واستولى عليه الفزع والذعر وبادره بالقول: ألم تأكل قرصي الكبة..؟

- لا..كله منه.

- لمن أعطيتهما..؟

- أطعمتهما لطفلين صغيرين.

- متى..؟

- منذ شهر عند انصرافهما من المدرسة.

- أنت إذن..!!

- كله منه...

- يا للمصيبة قتلتُ ولديَّ بيديّ.

وانطرح أرضاً مشلولاً، مغشياً عليه، فاقد الوعي من هول المصيبة..

القطَّـة وجارنـا

اعتادت عنبرة ألا تفارق دارنا إلا إلى دار جيران لنا، دارهم من النوع الدمشقي المعروف؛ ذي الفسحة السماوية الواسعة والأشجار المثمرة والبحرة المتدفقة.

كنت صغيراً حين أهداني جارنا قطة صغيرة أربيها وأعبث بها، وقد رحب أهلي بهديته وَأَوْلوا القطة من العناية والرعاية ما تستحقه لجمال شكلها، وخفة ظلها، ولأن الله وهبها أروع ما في القطط من ألوان الشعر؛ فجمعه في كسائها حتى ليحار الإنسان أن يصف منه لوناً دون آخر، وليس له إلا أن يقول: سبحان من أودع في كل شيء فتنة وروعة وجمالاً.

ولفرط إعجاب والدي بجلدها الملون ذي الشعر الطويل الزاهي صرح أكثر من مرة أنه في حال نفوقها سيستدعي جزاراً يسلخ جلدها ويدبغه ويزين به جدار غرفة الضيوف؛ تعبيراً عن قدرة الله في صنع المعجزات من الأمور.

كبرت قطتي التي أطلقت عليها اسم (عنبرة) فازدادت جمالاً على جمال، وروعة على روعة، وأصبحت محط أنظار ضيوفنا ومعارفنا وجيراننا، تدهشهم بشكلها وألوان صوفها وسرعة حركتها واستئناسها المحبب، فهي ترتاح لمداعبة الكبار، وتتغاضى عن إيذاء الصغار، وكنت أخصها بالغذاء المفضل عندها، وأوثرها على نفسي لأنها كانت بصدق تستحق هذا الإيثار..

وأتى يوم انتقل فيه أهلي إلى دار بعيدة عن دارنا التي نقيم فيها، وبدهي أن ينتقل معنا إلى الدار الجديدة كل ما لدينا من مفروشات وأصص نباتات، وشريكتنا في السكن القطة العزيزة عنبرة..

ولما كنت آلفها وتألفني، فقد حملتها بين ساعدي دون أن أضعها في كيس يحجبها عن الناس، ويبعد أنظار الناس عنها كما هي العادة في نقل القطط من مكان إلى مكان، وضممتها إلى صدري في عطف وحنان كأني أحتضن طفلاً عزيزاً علي، وسلكت بها وأنا أحملها الجادة الرئيسية المكتظة بالناس فلم تستوحش، ولم تعارض أو تحاول الانفلات، بل ظلت على هدوئها وتشبثها بصدري، وقد لفتت أنظار المارة وأدهشهم كساؤها الطبيعي الملون ذو الطول الفائق،

فأخذوا يقولون بعضهم لبعض: الله.. الله..ما أجمل هذا السنجاب! على اعتبار أن السنجاب يختص بشعر جميل ولون زاه يروق الناظر..

ولم تلبث عنبرة أن اعتادت سكن بيتنا الجديد ذي الطراز الحديث، فليس فيه بحرة ماء أو حوض نبات تقضي به تبرُّزها، لولا نافذة منخفضة تفضي إلى أرض عراء معدة للبناء، ليس فيها شجر ولا نبات، تتسلل إليها عبر النافذة فتقضي شأنها وتعود هادئة مطمئنة..

اعتادت عنبرة ألاَّ تفارق دارنا إلا إلى دار جيران لنا، دارهم من الطرازِ الدمشقي المعروف ذي الفسحة السماوية الواسعة والأشجار المثمرة الوارفة، والبحرة التي تتدفق فيها مياه الفيجة العذبة، ويسبح في لجاتها أسماك منوعة بألوان متباينة؛ سوداءَ وحمراءَ وشهباءَ، فكانت تقضي نزهتها شبه اليومية على حافة البحرة، ترمق تحرك الأسماك وهي تسبح في الماء، ثم تعود أدراجها بعد أن أشبعت نهمتها بالزيارة والتسلية..

بيد أن أحد شباب تلك الدار التي تزورها عنبرة لم يكن يرحب بزيارتها، وكثيراً ما كان يركض وراءها لتغادر داره ولكي لا تهجم على أسماكه.. ولله في خلقه شؤون..

عصرَ يوم؛ لم أكن اعتدت ألاَّ أرى عنبرة تقبل نحوي وتموء مواء لطيفاً تثبت فيه وجودها، وتنتظر مني مداعبتها فتحك جسدها اللدن بأسفل ساقي مرات ومرات، وهي تنتقل من واحد لآخر حتى أحملها وأقعد على الأريكة أداعب رأسها وأغمس أناملي بين طيات وبرها وهي تتلو وردها اليومي الذي لا يعلمه إلا الله..

أجل لم أعتد عدم وجود عنبرة تستقبلني أو تدور حولي، وقد فتشت عنها في أنحاء الدار وفي كل المظانِّ المأمولة فلم أعثر عليها، ومنَّيتُ نفسي أن تكون كعادتها لدى جيراننا تتفرج على أسماك البحرة..

حتى إذا بدأ القلق ينتابني طرقت باب جارنا أسأله عن عنبرة وهي غير مجهولة لديه، وكذلك أبواب الجيران الآخرين فلم ألْقَ أيَّ جواب يريحني أو أطمئن إليه..

ومضى عصر اليوم وتبعه المغرب والعشاء، ثم الليل بكامله من دون أن تعود عنبرة إلى دارنا، وأخذت الاحتمالات المزعجة والوساوس السيئة تخالط أفكاري فأحاول بكل جهد وإصرار ألاَّ أستسلم إليها بل أحاول أن أكون متفائلاً فأُمنِّي نفسي بأنها ستعود ولو مضى عليها يوم آخر..

بيد أن القلق بلغ مداه حين مضى يومان كاملان لم تعد فيهما عنبرة إلى مأواها وبيتها، وهنا لم يبق ثمّة مجال للتفاؤل وأصبح حدوث ما يسيءُ إليها أمراً متوقعاً..

حزن الأهل والمعارف على غيابها وقد مضى أسبوع كامل بساعاته ودقائقه، فاستسلمنا لليأس وخامرنا شك مريب أن يكون وراء غيابها تصرف الشاب الجار الذي كان يخاف منها على أسماك بحرته أن تتعرض لها بأي أذى، ولكن الشك قضى عليه اليقين حين ذكرت الأخت الصغيرة للشاب بأن أخاها ماجداً قد قتلها برصاص مسدسه منذ أسبوع.

زاد حزننا وأسفنا أن يكون ماجد قد قام بهذا العمل الوحشي، حتى لو ثبت له أن عنبرة افترست سمكة من أسماكه، فأخرجتها من الماء، وهربت بها بعيداً، ثم أكلتها..

أخلدنا بعد أن تأكد لنا مصيرها إلى الهدوء، واستسلمنا للواقع، إذ كيف يمكن لنا أن نتعرض لشخص لم نشاهده بأعيننا يقتل قطتنا؛ أن نبادره بالعتب واللوم والاستنكار؟!.. فاستسلمنا للصبر..

وفي اليوم الثامن على غياب عنبرة طرق سمعنا صراخ وعويل ينبعث من دار جيراننا فانطلقنا للنجدة كما تقتضيه حقوق الجوار.

وإذا بماجد الشاب المتوقد حيوية ونشاطاً يغوص في بركة من دمائه النازفة بالقرب من جدار البحرة وقد أطلق على رأسه رصاصة من المسدس نفسه الذي أطلق به النار على عنبرة..

وحتى اليوم لم نعرف السبب..

صفيحة ساخنة

أنا من أبناء الشاغور المعروف أهله بالنخوة والشجاعة ومقارعة المستعمر، وكان زعامة الأحياء والحارات الدمشقية مظهراً من مظاهر أهل الشام يدينون بها ويحترمونها.

كنت جالساً في دكان شاب قريب لي، وقد جرت عادتي أن أزوره ضحى أكثر الأيام؛ اقرأ الصحيفة اليومية التي يقدمها إلي بترحيب منه، وهو يرى ذلك وسيلة متعمدة منه لإطالة جلوسي لديه، ولا أخفي أنني كنت آنس إليه، وأشعر أنه يحبني ويصطفيني من بين الرواد، ويرى مكوثي في دكانه حيناً من الوقت ربحاً معرفياً، وزاداً فكرياً يحرص ألاَّ يفرط فيه.

وبينما كنت مقتعداً كرسياً أتصفح جريدة ذلك اليوم، إذ دخل رجل تلوح على ملامحه علائم الوجاهة والكمال، ويغلب عليه سمت ابن البلد بأصالته الدمشقية، وطيفه اللطيف ووقاره المحبب، وراح يتحدث إلى صاحب الدكان بما جاء من أجله، حتى إذا فرغ التفت نحوي وتفرس في وجهي لحظات من دون أن يكلمني، فلم أُعره انتباهاً، وصرفت نظري عنه إلى الصحيفة التي أقرأ، ولكنه ظل واقفاً يختلس النظر إلي، وأخذ يرمقني بنظرة فاحصة كأنه يستشف منها دخيلتي، ويستكشِفُ أسراري، ولم يلبث أن التفت إلى صاحب الدكان يسأله عن اسمي، فعرَّفَه به ولم يزد.

وإذا بهذا الرجل ينبري نحوي قائلاً من دون أي تمهيد: أتعرف الشيخ إبراهيم الكوسا..؟

أربكتني المفاجأة.. فتريثت قليلاً قبل أن أجيب، ورحت في لحظة خاطفة أستكنه الغرض من هذا السؤال وما وراءه من تبعات وأمور قد تحدث، ثم قلت له: لا أعرفه.. وهذه (اللا) على صغرها تعطيني فرصة أعرف فيها ما وراء هذا السؤال من خير أو شر..

ثم أردف قائلاً: أليس هو من عائلتك أو من أقربائك..؟

قلت: لا.. ليس هو من أسرتي ولا من قرابتي مع أن الكنية تجمعنا، وأَسر كثيرة في كل بلد ومدينة لا يعرف بعضها بعضاً تجمعها الكنى حتى تطابق الاسم نفسه في كثير من الأحيان.

أدرك الرجل أن المفاجأة أربكتني فصمت قليلاً، وراح بعدها يشرح لي سيرة حياة إبراهيم الكوسا لأطمئن إلى تصرفه وأرتاح إلى مبادرته...

فقال: الشيخ إبراهيم له فضل كبير عليَّ؛ فقد علمني تلاوة القرآن ومبادئ الوضوء والصلاة في كُتَّابه بحي الشاغور من دمشق، حيث أدركت فيه مبادئ العلم والمعرفة. وقد علمت عندما كبرت أن الشيخ إبراهيم كان من أهل الصلاح والتقوى؛ صوفيَّ التعبد؛ يلتزم نهج طريقة من طرق الصوفية المتعددة، وهو فوق ذلك من عباد الله الأتقياء الصالحين، وقد تربى على يديه وفي كُتَّابه جمع غفير من رجالات المجتمع، وكان أهل حي الشاغور الدمشقي العريق بمجاهديه وأبطاله وعموم سكانه يلتمسون بركته، ويتوددون إليه حباً وإجلالاً..

بيد أنه لا يخلو حي من الأحياء أو مجتمع من المجتمعات من أناس لا همَّ لهم إلا الطعن بأولئك الذين يتمسكون بالمثل العليا والأخلاق الحميدة والسمعة العطرة، وبالزهد في مباهج الدنيا، ويستهدفونهم بالكيد لهم احتساباً لوجه الشيطان، وكان من أثر ذلك أن ترك الشيخ إبراهيم كتَّابه وانصرف يفتش عن عمل شريف يكسب به قوت يومه وعياله من كدِّ يمينه، وعرق جبينه، عازفاً عن إحسان المحسنين، وعطاء الأثرياء المنعمين؛ لأنه لم يغتر بزخرف الحياة، ولم يهش لابتسامتها، بل كان دأبه طاعة الله ورجاء عفوه ومغفرته.

لم يكن الشيخ إبراهيم يعرف مهنة من المهن تؤهله للعمل فيها، فعرض على صاحب فرن بالحي نفسه أن يعمل لديه، فرحب به كل الترحيب وحدث نفسه أن دخول الشيخ في فرنه سيدخل معه الرزق الوفير والبركة الروحية. واستلم الشيخ إبراهيم عمله أمام بيت النار رغبة منه أن ينظر إلى النار التي هي خير واعظ يجنبه مزالق الشر والفساد.. في هذه الدنيا.

وبعد أن سرد هذا الرجل عليّ سيرة الشيخ إبراهيم، بَدَهني بسؤال آخر قائلاً: أتعرف الشيخ أحمد الحارون[1]..؟

قلت هذه المرة من دون تلكؤ: نعم أعرفه؛ فقد كان رحمه الله يسكن إلى جوار دارنا.

قال: أتعرف أن هذا الرجل من المشهود لهم بالصلاح والتقوى، وطهارة الكف وشفافية النفس، ومن الصوفيين القلائل العارفين بالله والمتصلين بحبال السماء..؟

قلت: نعم، أعرف ذلك جيداً عبر معرفة شخصية، وقد سمعت عنه أموراً عديدة كانت إبان حياته حديث الناس يرددونها عنه، فيعتقد بها بعض وينكرها بعضهم الآخر، وقد انتقل إلى رحمة الله منذ ربع قرن أو يزيد.

قال محدثي: ألم تسمع بما كان يؤثر عنه من أعمال وتجليات صوفية لا يقوى عليها إلا ذوو النفوس الشفافة الصافية من الأدران والآثام؟ قلت: أعرف عنه كثيراً من تلك التي لا يؤمن بها العلم الحديث؛ لأنها فوق المعقول، وبعيدة عن واقع الأمور.

قال: وإذا رويت لك حادثة كنت من شهودها في الأربعينيات من القرن العشرين؟!..

قلت: تفضل؛ لا ضير في ذلك، وقد أصدق أو يخامرني الشك، ولا عليك فيما سيكون حالي..

قال الرجل: كان العارف بالله الشيخ أحمد الحارون من أبناء دمشق الذين سلكوا الطرق الصوفية والاندماج الكلي في الروحانية التي تصفي القلب وتطهر النفس من أدران المفاسد وغوايات الشيطان، فعزف عن مباهج الدنيا وما فيها من زخرف وزينة، فكان يلبس البسيط من الثياب، ويأكل المتوافر من الطعام، ولا يختزن من المال الذي يؤثره به وجوه المجتمع من تجار وأثرياء وأطباء ورجال أعمال لينفقه كما يشاء حُبّاً به والتماساً لبركته، وهم يدركون أن الشيخ لا ينام قبل أن ينفق المال على من هو بحاجة إليه.

قلت: أنا أعرف عن الشيخ كل ما ذكرت وأكثر..!!

قال: أنا من أبناء حي الشاغور كما سبق أن ذكرت لك؛ المعروفِ أهله بالنخوة والشجاعة ومقارعة الدخيل المستعمر؛ فقد انطلق شبابه للالتحاق بالثورة السورية الباسلة التي قارعت الفرنسيين في الغوطة الفيحاء وروابي ميسلون، وانضموا إلى الأشاوس من رجال سورية؛ سواء في جبل العرب الأشم أم في سهول الشمال والغرب من هذا الوطن المكافح.

قلت: لا أنكر ذلك، ولكن ما علاقة ما ذكرت بأحداث الثورة السورية التي هب فيها كل شبر من أرض الوطن يصارع المستعمر الدخيل؛ تلك الثورة التي ستظل حية في قلوب أبناء الشام وعقولهم في الريف والحضر، ينقلها جيل بعد جيل، متوجة بالعز والإجلال، ومشغولة بالفخار والاحترام؟

قال الرجل: لأنه في زمن الثورة وما قبله كانت زعامة الأحياء في دمشق مظهراً من مظاهر أهل الشام، يدين بها جميع السكان فيجلُّونها ويحترمونها، وتلاقي كلمة الزعيم وإشارته السمع والطاعة مع الإجلال والتقدير..

قلت: رحم الله ذلك الزمان الذي أصبحنا نتحدث عنه كأنه من المعجزات التي ظهرت في عصر من العصور الذهبية وطواها النسيان..

قال الرجل: في هذا الزمن بالذات اجتمع رهط من هؤلاء، وكانت أسماؤهم معروفة لدى القاصي والداني حتى عهد قريب، فالمعروف من كناهم: خدام السروجي والشماط والكُلاَّوي والخرَّاط والرفاعي وغيرهم كثير، وتوجهوا لزيارة الشيخ أحمد الحارون زيارة اختبار لكراماته الغريبة، واتصالاته الروحانية العجيبة، وهم يحملون في قرارة أنفسهم الشك بما يؤثر عنه من أعمال وتصرفات لا تدخل في مفاهيم العصر الحديث بالواقع والمعقول.. وكنت شاهدَ هذا اللقاء..

قلت: وماذا جرى..؟

قال: استقبل الشيخ هؤلاء الرجال كما هو معروف عنه بالكلام المقذع والتوبيخ اللاذع، المقرونين بعدم الاحترام الظاهر، وهو ما كان معروفاً من سلوكه عندما يتباسط بالحديث مع أكثر زواره، وكان يقبل منه ذلك بالرضاء والسرور..

وبعد أن كال لهم الكيل الوافي من الكلام غير المستحب إلا من هذا الشيخ، قال لهم: قولوا بصراحة لماذا جئتم..؟

قالوا: جئنا للبركة وطلب الدعاء..!

فقال: كذبتم..

فقالوا: للاطمئنان على صحتك.

قال: غير صحيح..

قالوا: لتناول طعام الغداء على مائدتك.

فقال: حسناً.. وماذا تودون من طعام..؟

قالوا: صفيحة بلحم الضأن..

فلم يعترض الشيخ، وكان يلبس سروالاً فضفاضاً ذا تكة غليظة تحيط بخصره وتمسك بالسروال أن ينزل.

قال محدثي: وأمام عيني سحب ما فاض من التكة وأمسك بها كما يمسك الناس بسماعة الهاتف، وقال بالحرف الواحد: يا شيخ إبراهيم يا كوسا.. عندي عكاريت[2] جاؤوا لاختباري يريدون أن يأكلوا صفيحة ساخنة فلا تتأخر..

وأطلق التكة من يده، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث، والحديث ذو شجون.. ومضى وقت ليس بالقصير، والجميع يتلهفون لما سيحدث، والذي جرى كما رواه لي صاحب الفرن أن الشيخ إبراهيم رد على الهاتف بسره ولم يفصح عن ذلك، بل طلب إلى زميله في الفرن أن يعمل مكانه أمام بيت النار ليكمل صنع الخبز، وانطلق نحو اللحام المجاور للفرن فَجَهَّز التتبيلة[3] وعاد إلى الفرن مسرعاً حيث أوقف صنع الخبز وجعل يصنع أقراص الصفيحة بنفسه، حتى إذا انتهت نزع ما كان يحيط برأسه من كوفية تقيه وهج النار فلفها على شكل دائرة ووضعها على رأسه تحت وعاء الصفيحة الساخنة، وانطلق بها من حي الشاغور إلى دار الشيخ أحمد الحارون في حي المهاجرين، ماشياً مسرعاً في الوقت الذي لم يكن فيه وسيلة للوصول إلى ذلك المكان الذي يستغرق من الماشي أكثر من ساعة إلا بالعربة ذات الخيول أو بالترام..

أكل الضيوف، وأكلتُ معهم صفيحة ساخنة وأنا أشهد الله على ذلك وأقول رحم الله الشيخين: أحمد وإبراهيم...

لا لليأس

لم يكن في دمشق حينذاك من نزل الضيافة للأثرياء ووجوه المجتمعات سوى فندقين دمسكوس بالاس في جوزة الحدباء بسوق ساروجة ... و....

في الأربعينيات من القرن الماضي زار دمشق ثري من أثرياء الهند المسلمين، ترافقه حاشية قوامها عشرة أشخاص، ولم يكن في دمشق حينذاك من نزل الضيافة للأثرياء ووجوه المجتمعات سوى فندقين: (دامسكوس بالاس) في منطقة جوزة الحدباء بسوق ساروجة؛ وهو فندق صغير متواضع مؤلف من ثلاثة طوابق، بناؤه من الخشب والطين، يعود عهد بنائه إلى أواخر القرن الثامن عشر، وفندق حديث أنشأه ثري لبناني من آل خوام أطلق عليه اسم (أوتيل خوام)؛ وقد كان الأولَ ليس في دمشق فقط بل في سورية كلها من حيث السعة والفخامة والتأهيل، وهو قائم حتى الآن على عتبة محطة الحجاز التاريخية للسكة الحديدية..

وبدهي أن ينزل هذا الثري في هذا الفندق العظيم، حيث اختص مع رهطه بجناح من أجنحته الفخمة التي تطل على دمشق وأوابدها، وتصافح جبل قاسيون بصخره الوردي الجميل..

ولم تكن دمشق في هذا الوقت مكاناً مرموقاً للسياحة والزيارة كما هو شأنها اليوم، ولذا فإنه عندما كان يطأ أرضها إنسان له مكانة مرموقة يضحي حديث الناس في مجتمعاتهم وندواتهم ومسامراتهم وسهراتهم..

في ذلك الوقت قام بعض وجوه دمشق بتأسيس مدرسة للأيتام تحت اسم جمعية الإسعاف الخيري؛ تحتضن طفولتهم وتتعهد بالمجان تدريسهم مع الإكساء والإطعام والإيواء، وقد نشط الأعضاء في جمع التبرعات؛ فانتشروا في كل مقصد يُستأنس فيه الرفد والعطاء وبريق الأمل في تأمين المال..

وكان من بين الناشطين بجمع التبرعات قريب لي سمعت كثيراً عن همته ونشاطه في إقامة هذا المشروع العظيم، وكان أن بلغ مسمعه وفادة هذا الثري الهندي الذي لم يذكر لي اسمه بل اكتفى بذكر أوصافه فهو ضخم الجثة، أسمر اللون، مهيب الطلعة، تشع عيناه ببريق الذكاء الأخاذ والرجولة الواضحة، يضع على رأسه عمة كبيرة من الشاش الأبيض النظيف، وفي صدره طوق من حبات الكرمان الكبيرة هي على ما يبدو سبحته التي يسبح الله بها...

وقريبي هذا من ذوي الأنوف الحساسة التي تشم رائحة المال حيث كان من دون أن تخطئ، فعندما سمع بزيارة هذا الثري وأنه حَلَّ في فندق خوام الذي يعرف الآن باسم فندق الشرق، وقد خبا لمعانه وانحدرت درجته بين الفنادق الفخمة التي زرعت في أنحاء متفرقة من دمشق التاريخ؛ لم يتلكأ في المبادرة وهب مسرعاً للزيارة دون أخذ موعد لها إذ لم يكن الموعد في ذلك الوقت من الأمور الشائعة، ويكفي أن يعلن عنها عند حضوره للفندق.

ولكنه، لما دخل الفندق، وجد أُبَّهَةً لم ير مثلها في مكان آخر، وأدهشه منظر العاملين بلباسهم الموحد وهم يطوفون في أبهاء الفندق، فقصد أحدهم وسأله عن الثري الهندي الذي يحل في ضيافة الفندق، واستوضح عن اسمه ورقم جناحه، كما استطاع بلباقة أن يُلِمَّ بكثير من أمور المزور لجهة أصله وفصله وكرمه ولغته ودينه..! عندها توجه بثقة واعتزاز نحو جناح الثري في الطابق الثالث عبر السلم الموصل إليه، ولم يكن يعرف أن مصعداً يوصل إليه دون عناء موجود، وهذا لم يكن معروفاً في أبنية دمشق.

استقبله رئيس الحاشية بأدب جم، وبسؤاله عن هدف الزيارة ذكر له أنه في سبيل جمع تبرعات لإقامة مشروع إنساني نبيل، وأنه يأمل أن يساعده فلم يمانع؛ ومهد له فوراً سبيل اللقاء..

هَشَّ الثري لاستقباله ببشاشة وجه واهتمام واضح، وبالاستفسار منه عن هدف الزيارة شرح له قريبي أنه يمثل جمعية خيرية قامت من جديد بدمشق، هدفها رعاية الأيتام إقامةً وتعليماً وتهذيباً عبر مدرسة أنشئت برفد المحسنين وكرم أثرياء المسلمين، وأن دمشق سمعت بكرمكم وعطائكم قبل تشريفكم فاستعدت لاستقبالكم بقلوبها وعواطفها قبل وجهها، والجمعية على وجه الخصوص علقت على حضوركم وكرمكم كبير الآمال؛ لأنها تقوم بعمل إنساني جليل ترعى فيه الأيتام ليغدوا في المستقبل عناصر خير متسلحة بالأخلاق والعلم والدين؛ ولا شك أنكم تحملون في قلبكم الكبير التقدير لمثل هذه الأعمال الجليلة التي هي جزء من رسالتكم الإنسانية التي تحرصون على دعمها.

وبعد أن سرد على الثري كل ما اختزنه من شرح، وما أفاض عليه به ربه من كلام قد يكون مقنعاً، صمت قليلاً وتأهب لاستلام التبرع المنتظر، ولكن الذي حدث أن صاحبنا قال بلسان عربي فصيح: آسف.. فنفسي لم تتحرك فيها عاطفة الاقتناع بما ذكرت، وأرجو أن يكون عملكم خالصاً لوجهه الكريم، ولكن لا بد من استضافتك بفنجان قهوة، ولم يفلح قريبي في الاعتذار عن شربه، فشربه وانصرف، ولم يبد أي امتعاض، لقد خرج قريبي بخفي حنين ولكنه أضمر في نفسه شيئاً..

عاد في اليوم التالي في الموعد السابق نفسه، واستأذن في الدخول على الثري فلم يجد أي معارضةٍ من رئيس الحاشية الذي سهل له طريق اللقاء بأسرع ما يكون...

رحب به هذا الأخير كالمرة الأولى، فاستأنس قريبي بترحيبه، وانبرى يشرح له من جديد هدف زيارته وما يأمله من رفد وعطاء للنهوض بأعباء المشروع الخيري الكبير، وأفاض بالشرح والتفصيل، وذكر المساهمين الذين هم من علية القوم أخلاقاً ومكانة، وتعليقهم لآمالهم على رفده وكرمه، وكان أن انتهى من احتساء قهوته التي قدمت له هذه المرة عند دخوله، وبانتظار أمر الثري لمن يقوم بصرف المال إليه فوجئ بالقول: آسف مجدداً؛ لأني لم أقتنع بما شرحت، ولم تنفتح نفسي إلى المساعدة، وعلى كل فإني أكتفي بالدعاء لكم بالتوفيق وتحقيق الآمال...

فقال له قريبي: لا عليك، وأشكرك لحسن استقبالك. وقد ودعه بوجه باسم لا ينم عن الانقباض واليأس والإخفاق وانصرف..

عاود الزيارة مرةً ثالثةً في الموعد نفسه، وقد عرفه رئيس الحاشية وعمال الفندق؛ وكأنهم شعروا أن الثري استلطفه وطلب إليه عدم التأخر في تكرار زيارته لأمر خفي عن علمهم..

وهكذا وجد نفسه للمرة الثالثة أمام الثري وجهاً لوجه، فرحب به كعادته، وبسؤاله عن سبب زيارته أعاد عليه حديث الأمس وأول الأمس، وشرح بإطناب هدف إقامة المشروع الإنساني النبيل، وأضاف أنه يأمل كل الأمل في المساعدة وعدم الإخفاق، مبدياً أن الإحباط لم يصبه في لحظة من لحظات حياته دون تحقيق أهدافه.

وهنا انفرجت أسارير الثري وبدت عليه علائم الاهتمام بالموضوع؛ فطلب إلى قريبي إطلاعه على المراحل التي تمت في مشروعه، وعن النفقات التي يلزمها إتمام المشروع، فشرح له ذلك بإسهاب، واستطرد الثري قائلاً: اليوم أدركت أنك مخلص في هدفك، صادق في توجهك، لا يثنيك عن تحقيقه أي فشل أو عائق، بصبر وإيمان قد يعجز عنهما الكثير، فلم تيئس في المرتين السابقتين.

وإزاء هذا الإصرار أرجو أن تعد ما أقدمه لك من مال هدية متواضعة ومساهمة رمزية لا تضاهي حماستك وإيمانك.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون..

أسرة متحررة

وتمر شهور عدة حتى تصبح العلاقة بين الموظفين منسجمة بعض الانسجام، وكذلك التعاطف الوظيفي الذي ينشأ بين موظفي الجنسين في دائرة واحدة.

سميرة صبية ذات حيوية ونشاط، لم تتجاوز عقدها الثالث حين اجتازت مدخل ديوان الشركة العامة للنسيج التي يعمل فيها صديقي فؤاد، سافرة لا يسترها حجاب، كما لم يُطْل وجهها بمساحيق الزينة المتعددة الألوان، وتقدمت بخطا ثابتة نحو رئيس الديوان، وقدمت له ورقة دار على أثرها حديث مقتضب، هب بعده الرئيس لمرافقتها إلى الطاولة الفارغة، فجلست وراءها، عندئذ عرف فؤاد وعرف الزملاء أنها الموظفة التي ستشغل مكان الموظفة القديمة التي تركت العمل لرغبة زوجها في أن تكون ربة منزل تحسن إدارته وتجيد رعايته.

ومن الطبيعي أن تتجه أنظار رجال الديوان وتشرئب أعناقهم إلى الداخلة إذ لم يكن بينهم موظفة واحدة سوى التي غادرت وتلك التي حَلَّتْ..

سبعة أيام مضت دون أن يكون بين سميرة وبين زملائها أي حديث أو كلام، سوى صباح الخير وتحية الانصراف.

قلت لفؤاد: وما المهم في كل ما ذكرت إلا إذا كنت ستضيف شيئاً..؟

صمت فؤاد وأدركت أنه لا يود أن يذكر شيئاً آخر عنها، وكأنه يحتفظ بسر عزيز عليه يمتلكه وحده ولا يرغب في أن يفرط فيه..

إلا أنه بعد لأي، وبعد كل الحيطة التي أحاط نفسه بها، خرج من تحفظه وقال: سميرة فتاة هادئة ورزينة، تغضي حياء وتتورد وجنتاها خجلاً إذا طافت بوجهها نظرات الرجال، فهي

باختصار غزالة رشيقة ذات قد متناسق لا عيب فيه، تنساب على كتفيها خصلات شعر كستنائي يضفي عليها روعةً وجمالاً..

فقلت له: هذا الكلام يا فؤاد ينطوي فيه الإعجاب والتقدير وأشياء أخرى..

فقال: معاذ الله، فأنت أعرف الناس بنفسي، وليس من عادتي التغزل بالنساء، فكيف تراني أنحدر إلى ما ظننت..؟

– إذن ما لنا وللحديث الطويل عنها؟..

أنا يا صديقي بدافع الفضول أخمن أن وراء هذه الصبية سراً..؟

– لا أكتمك يا صديقي أني كنت أسترق النظر إليها فأراها تفتح درج مكتبها وتخرج منه شيئاً يشبه كراسة أو كتاباً، تمعن النظر فيه ثم تطبقه وتعيده إلى مكانه مرات عديدة في اليوم الواحد..

– وما الغريب في ذلك يا فؤاد..؟

– فيه السر الذي أُحوِّم حول معرفته، وما أظنني إلا سأجترئ يوماً وأطلب أن تعيرني هذا الكتاب.. إذا كان كتاباً..

وتمر شهور عدة حتى تصبح العلاقة بين الموظفين منسجمة بعض الانسجام، وكذلك التعاطف الوظيفي الذي ينشأ عادة بين موظفي الجنسين في دائرة واحدة، ومن هذا المنطلق شجعت نفسي وتقدمت إليها أستعير تلك الكراسة، وبمنتهى الأدب فتحت درجها وقدمتها إليَّ..

لم تكن تلك سوى كراسة ضخمة الصفحات؛ ألصقت صورتها الملونة على الصفحة الأولى منها، ولدى تصفحها وجدت فيها أروع ما قيل من شعر غزلي رفيع استمطرته قرائح الشعراء من سحائب الغيوم بالعذب من المعاني، فيه رقة الماء القراح، والأرج الفواح، وقد جهدوا في نظمه، وتنافسوا في سبكه..

– الله.. الله.. وبعد يا فؤاد..؟

– احتفظت بالكراسة أياماً ولم أشعر منها قلقاً عليها، بل ظلت مطمئنة الملامح؛ فأعدتها إليها شاكراً من دون صوغ للكلام الجميل أو تنميق للعبارات، بل كان فيه ما هو أبلغ وأسمى وأرفع، فقد كان فيه التقدير والاحترام المتبادل..

– إذن انتهى ما كنت تود الحصول عليه، ويدفعك الفضول إلى معرفته..؟

– لا يا صديقي.. ما زلت أود الكشف عما يحويه الصندوق المغلق..

– وعن أي صندوق مغلق تتحدث..؟

– رأسها.. لا شك أن فيه سراً أود معرفته، لا لشيء، سوى الفضول الذي تعرفه عني وقد تأصل في ذاتي وأصبح من عادتي..

وتمر الأيام وفؤاد وسميرة في المكان نفسه، هي صامدة لا تود الحديث عن أي شأن من شؤون حياتها، وفؤاد وراء الأمل بالكشف عن سرها، وذلك كله بالحدس والتوقع فقط، دون صريح حديث بينهما، أو تلميح يؤدي إليه..

وحدثَ بعد ذلك أن غابت سميرة عن عملها أربعة أيام بإجازة مرضية، عادت بعدها وعلى وجهها أثر واضح للمرض، وكان من اللباقة أن يرجو لها الجميع الصحة والعافية، وأدركت بذكائها وفطنتها أن فؤاداً أشد الناس تلهفاً لمعرفة ما أصابها، وأنها منذ استعار منها الكراسة؛ وقع في خلدها أنه يُحوِّم حول معرفة شيء من حياتها، ولما كان المرض ليس هو الذي أخرها

عن العمل، ولكن شيء آخر، فهي بلاشك بحاجة إلى البوح به، وإزاحته عن كاهلها، وبعفوية بالغة ومن دون أي تحفظ توجهت إلى فؤاد بالقول: أنت متزوج وعندك بنتان، فخذ نصيحة من أخت لأخ وهي ألاّ تسمح لأي منهما أن تخرج مع خطيبها قبل أن يتم العقد الشرعي ويباركه الأهل والأصحاب..

بهت فؤاد بما سمع من سميرة، وفوجئ حقاً بكلامها الذي ألقته إليه بصوت متهدج ووجه يشوبه الأسى، ويغمره الألم الدفين.

فقال لها: سعدت بنصيحتك ولكن لا بد من سبب لذلك..

فقالت وبلا أي تحفظ: أنا من أسرة لا تؤمن بالحجاب متحررة، شأنها شأن كثير من الأسر الدمشقية التي تهوى الانطلاق والمعاشرة والاختلاط والسهر وما يندرج فيه، وقد تقدم إلي شاب من أسرة مماثلة لأسرتي، وتمت خطبته لي عبر اجتماع بسيط، وانطلقت منذ اليوم الأول أخرج معه؛ نتغدى أو نتعشى في الأماكن العامة من دون أي حرج، ومن دون أي حساب لتقاليد المجتمع المحافظ.

وأنا لي صديقة واحدة هي أقرب صديقاتي إلى قلبي، وموضع سري ومحبتي، ويشاء الله أن ألتقي بها حين كنت مع خطيبي نتناول طعام العشاء في أحد المطاعم، وكانت هي مع أهلها تمارس الشيء نفسه، ولمحته ولمحتني، وأومأت إليها بالسلام وأومأت إلي، ثم لم تلبث من دون أي تخطيط أن غادرت مائدتها وانضمت إلى مائدتنا، وجرى تعريفها بخطيبي وبالعكس، واندمجنا في سهرة لطيفة فيها متعة ولهو، وقبل أن تغادرنا دعت خطيبي إلى زيارتها في دار أهلها؛ وقدمت له بطاقة فيها عنوانها وهاتفها، فلم أعرِ الموضوع أي اهتمام، وعددته تصرفاً عصرياً لا غبار عليه لدى هذه الطبقة من الناس.

بعد هذه السهرة أحسست تبدلاً في معاملة خطيبي من حيث تأخر زيارته لنا عمّا كان في أول العهد، وعدم إطرائه على أي تبدل يحدث في ألبستي وزينتي، مع أني كنت أبذل مزيداً عن الأيام الأولى للتعارف، وكذلك لاحظت رغبته في عدم الخروج معاً إلى الغداء أو العشاء في مكان عام، فلم أُعِرْ ذلك أي اهتمام، لولا أنه أخذ يطري أمامي على صديقتي ودعابتها ولباسها وزينتها، وقد ذكر لي عبر حديث مركز أن أهلها هم من التحرر بمكان، ويسعدهم أن يزورهم مرحباً به لديهم.

وبعد مضي مدة قصيرة انقطع خطيبي عن زيارتنا ولم يعد يرد على الهاتف، وقد علمت من طرف خفي عبر صديقةٍ لي أن خطيبي أعلن خطبته لتلك التي عرَّفته عليها، وأن مراسم الزواج على قدم وساق، ولم نكن قد لبسنا خاتم الخطوبة ليرميه في وجهنا، وهو عرف جرى التعامل به في مثل هذا الحال.

وفي الأمس تم الزواج، وانطلق العروسان لقضاء شهر العسل، فأدمى هذا التصرف الأرعن فؤادي، لا من حيث إن خطبتي لم تتم؛ ولكن بسبب خيانة صديقتي؛ تلك القرصانة التي لم أكن أتوقع ولو تخيُّلاً أن يصدرَ ذلك منها وهي سر قلبي ومشكاة ضميري.

ومن هذه المأساة التي حدثت آليت على نفسي أن أحارب أي تَحَرُّرٍ أُسَرِيٍّ لا يحقق علاقة طاهرة بين خطيبين قبل إتمام الزواج، وقد آثرتك بهذه النصيحة وأنت أهل لَها، ولتكن ضوابط

المجتمع وسنن الشريعة السمحة بالحفاظ على الأخلاق والدين خير حافظ؛ لما فيها من ردع وطهارة للناس أجمعين.

سرقها اللصوص

بلغ عبد السلام الثمانين من عمره، وبلغت مكتبته من السعة والعدد ما يضاهي مكتبات الأعلام من الأدباء والكتّاب..

نشأ عبد السلام في أسرة متوسطة الحال سعة وعدداً، قوامها والده وأخته الصغيرة وزوجة أبيه، يعمل والده في وظيفة من وظائف الدولة لا تحتاج إلى شهادة عالية، وامرأة أبيه أمية تجهل القراءة والكتابة، ولكنها سيدة اجتماعية حقاً؛ تحسن الغسل والكنس والطبخ على قدر كبير، وتدير شؤون البيت بمهارة فائقة، ومن طبعها أن تألف الناس ويألفوها ويروا فيها سيدة على مستوى لائق من المجاملة والمعاشرة، غير أنها لا تحسن رعاية الأولاد والحدبَ عليهم وبرَّهم، وهذا مما ينال من حسن سلوكها ويؤكد جفاف عشرتها المنزلية، فهي عقيم تعاني من عقدة الإنجاب، ولذا لم يكن للحنان والعطف والرأفة مكان في صدرها، فهي خارج المنزل مع الأهل والجوار والأصحاب والمعارف لطيفة الحديث، هادئة الطبع، رزينة التصرف، وفي الدار على النقيض من ذلك، سريعة الغضب، قاسية القلب، سيئة الظن، تثور لأتفه الأسباب؛ مما جعل حياة والده وولديه جحيماً لا يطاق، وجو البيت مشحوناً بالشحناء والخصام، وتعود الأسباب إلى أن شأن والده مثل شأنها؛ لا يغض الطرف عن هفوة أو زلة، ولا يتجاوز عن سيئة من سيئاتها مهما صغرت أو كبرت؛ بل يجابهها بعصبية أشد من عصبيتها، وتوتر أشد من توترها، وأكثر ما كان يؤجج الخلاف ويبعث على المضي في الكلام المقذع، ومفردات السب والشتم إشارة أو كلمة تشير من قريب أو بعيد إلى زوجته المطلقة أي والدة عبد السلام، مع أنها ذات زوج وأولاد، ويكفي لإشعال الخلاف تعرض أحد الأقرباء أو المعارف لذكرها ولو من خلال حديث عابر غير مركز، فتضطرب الأمور وتغلي النفوس وتزداد وتيرة الخصام، وكثيراً ما ينتهي الأمر بوقوع يمين الطلاق.

وما إن يقع الطلاق حتى تبدأ الوساطات والمداخلات الخيّرة من الأهل ومن الجوار أحياناً لرأب الصدع، وإعادة الأمن المفقود إلى جو البيت، مع الترقب والانتظار أن تثور الأمور في مرة مقبلة ليقع الطلاق ثانية وتبقى الأمور معلقة على اليمين الثالثة الحاسمة.

عاش عبد السلام طفولته المبكرة في هذا الجوّ المشحون بالاضطراب؛ محروماً من حنان الأم أو معرفتها مع حقنه بفكرة خاطئة أن امرأة أبيه هي أمه وأم أخته، وإذا خامره أدنى شك بذلك فإن البلاء يصب عليه صباً ويعاقب عليه بالتهجم والإيذاء، وكيف له أن يذكر أمه وهو لا يعرفها؛ فوالده انفصل عن أمه وهو لم يكمل الثالثةَ من عمره وأخته السنةَ الأولى وبضعة شهور من عمرها..

أقنع عبد السلام نفسه – على كره منه – أنَّ امرأة أبيه هي أمه، مع أن كثيراً من الأقارب كانوا يتبرعون تلميحاً بإفهامه الحقيقة، والإيحاء إليه بذلك نكاية بامرأة أبيه التي يحترمونها ظاهراً، ويكرهونها باطناً، بسبب معاملتها السيئة لأولاد زوجها، وكانت شقيقته الصغيرة تعاني ما يعانيه من حياة مضطربة لا دعة فيها ولا هدوء، وقد حرمها والدها وامرأة أبيها من التعليم وارتياد المدرسة خشية معرفتها لأمها، وهي ذاهبة آيبة، فكان أن خرجت إلى الدنيا أمية شأنها شأن امرأة أبيها، وزاد في الأمر قسوة أن أباها زَوَّجَها وهي في الرابعة عشرة من عمرها من قريب له أمّي أيضاً يجهل الأبجدية ولا يتقن إلا الأرقام الهندية التي تساعده في عمله البدائي فحسب.

وبدهي أن الزمن له دور في حياة هذه الأسرة التي قَلَّ أن ذاقت طعم الهناء في يوم من أيامها، وطبيعي أن تضطرب حياة عبد السلام في هذا الجو غير المحبب؛ فكان أن وجد في قراءة الكتب والصحف والمجلات عزاء عن واقعه المؤلم؛ فانكب بشغف شديد على القراءة جل أوقاته، مهملاً بقية دروسه التي لا يجد لها ترحيباً في نفسه، وتدرج بصعوبة بالغة حتى أنهى دراسته الثانوية دون أن تقترن بالشهادة، فقنع بما وصل إليه، وسعى سعيه ومن ورائه والده حتى وجد عملاً له في دائرة من دوائر الدولة أسوة بأبيه.

أما الذي يعنينا من كل ما ذكرنا فهو أن عبد السلام منذ مرحلة الدراسة الابتدائية أكبَّ كما أسلفت على القراءة الأدبية ووجد من والده تأييداً لهذه الهواية، وهو لم يكن كباقي أقرانه ينفق مصروفه اليومي الذي يحصل عليه من أبيه في شراء ما اعتاد الأطفال شراءه من مكسرات وسكاكر ونقارش، بل على العكس من ذلك؛ فقد كان يجمع القرش فوق القرش ليتسنى له شراء كتاب يرغب فيه أو مجلة تعجبه، وبدأت المكتبة تنمو ورقة ورقة، وكتاباً كتاباً وتزداد على الأيام عدداً وحجماً، وأصبح عبد السلام بعد أن توظف وغدا يقبض مرتباً شهرياً زبوناً دائماً للمكتبات؛ يطلع فيها على الجديد الصادر منها فيقتني ما يسعه اقتناؤه حسب قدرته الشرائية، موازناً بين ما ينفق وما يحصل عليه من كتاب قيّم، ولما زاد دخله الشهري وأصبح في بحبوحة من المال راح يتأنق في تجليد الكتب ويضع اسمه في ذيلها تأكيداً لملكيَّته لها، وتلذذاً بمشهدها، ومع الأيام باتت مكتبتُهُ عامرة بأمهات كتب الأدب والتاريخ، ولم يكن للعلوم الأخرى نصيب فيها.

بلغ عبد السلام الثمانين من عمره، وبلغت مكتبته من السعة والعدد ما يضاهي مكتبات الأعلام من الأدباء والكتاب، ولم يكن له أي نصيب في تأليف كتاب واحد يضمه إليها، وإنما بقي جامعاً لمؤلفات غيره يهوى معرفة الأدباء والكتاب، ويضع في خدمتهم مكتبته العامرة للاستفادة

من مراجعها فيما ينتجون. وكان إذا فاته أي جزء من كتاب متعدد الأجزاء لا يبالي أن يدفع في سبيل اقتنائه أي ثمن مهما اشتط البائع في رفعه، أو بالسفر إلى مظان وجوده، وكان من طبعه الحرص الشديد على المكتبة فلا يغامر بإعارة كتاب منها إلى إنسان مهما كان يعز عليه.

كان لعبد السلام صديق عزيز في حب الكتب واقتنائها والحفاظ عليها، ويملك مكتبة غنية توارثها عن جده وأبيه، وضم إليها ما وسعه الضم، حتى باتت ذات شهرة واسعة، يقصدها من يفتش عن كتاب نادر أو ليس له مثيل في مكتبات أخرى، أو مخطوطة لم تحقق، وقد ضمت مكتبته مخطوطات ثمينة عز نظيرها، وقد توفي هذا الصديق منذ مدة قريبة، ولم يكن له من الأبناء سوى ابنتين تزوجتا وخلفتا أسباطاً من البنين والبنات، ثم توفيتا بعده بقليل، فتهافت الأسباط وهجم الأصهار على المكتبة؛ يقطعون من أوصالها ما ليس لهم رغبة فيه من دون تقويم لمحتواه أو معرفة بما يضم من كنوز ثمينة، وكان صاحبنا عبد السلام شاهد هذه المجزرة المؤسفة والمتأثر بأحداثها..

ومنذ ذلك التاريخ راح عبد السلام يفكر في هذا الصرح الذي بناه لبنة لبنة، وكلفه زهرة شبابه وعمره، فلم يعكف كما عكف جيل من الشباب على متع الحياة، بل انصرف منذ طفولته حتى هذه السن المتقدمة إلى بذل الغالي والرخيص لإغناء مكتبته بالجيد من الكتب، لا يقيم وزناً لمغالاة البائعين بثمنها، فهو منذ أن نشأ تدغدغ أحلامه الآمال الكبار أن يؤسس مكتبة ضخمة يعيش في رحابها عيشة عشاق العلم والمعرفة.

جلس ذات مساء يستعرض في فكره ما آلت إليه مكتبة صديقه عبد الودود، وكيف ذهبت أشلاء ممزقة، وبعثر محتواها على غير هدى، بعد أن أفنى حياته في جمعها وتأنق في تجليدها وصيانتها، وراح يقارن بينها وبين مكتبته المرصوفة بالكتب المجلدة ذات الألوان المتعددة، والموضوعة في نظام دقيق محكم لا يغيب عنه فيه مضمون أي كتاب من الكتب التي تحويها؛ ماذا سيكون حالها بعد أن يفارقها مرغماً ويذهب إلى غير عودة.. ويأمل لو قدر له أن يرى من وراء الغيب مصير مكتبته التي تحوي هذا الكنز الثمين من الكتب، وبعض التحف القيّمة التي أهديت إليه في مناسبات عزيزة وقد جَمَّل المكتبة بها، وكيف سيجري التنازع عليها وأخذها؟ وكيف سيكون مآل هذه الكتب التي وضع اسمه المذهب على جلدها؟ وهل ستجد من يرعاها رعايته، ويهتم بها اهتمامه؟ أم سيكون نصيبها الإهمال، وترمى أشلاء ممزقة على الأرصفة يمر بها القاصي والداني من دون أن يلقي لها بالاً، أو تلفت له نظراً، أو تسلك طريقها إلى بائعي الكتب القديمة المهترئة لتباع بأبخس الأثمان..؟ أو تدخل بعض البقاليات المنزوية للاستفادة من ورقها في صَرِّ مادة من الأغذية لزبون من الزبائن..؟

أخذت هذه الأفكار تناوش ذهنه، وتضعف فيه نشاطه وجلده، وهو في هذه السن العالية، وتتزاحم في رأسه وساوس الهم والأسف، وكأنَّ الدنيا اسودت في عينيه، وغام إشراقها من حوله، ولم يعد بريق الكتب المكدسة في الرفوف يعني له شيئاً.

وانتقاماً من كل الوساوس والأوهام التي خامرته في هذا المساء طلب إلى زوجه أن تعد له عشاءً دسماً يتناول من أطباقه المتعددة ما لذ وطاب انتقاماً لنفسه مما جمع في حياته من كتب ومخطوطات وتحف نفيسة ذات تاريخ وقيمة، وقد أدركت زوجته بحسها المرهف أن عبد السلام

يعاني من هَمّ لا تعرف ولا تدري أسبابه، وأنّى لها أن تعرف وهي لم تجده لقي إنساناً، أو خاطب شخصاً أو غادر بيتاً، بل ظل يومه في رحاب مكتبته يغرق عينيه في النظر إليها باهتمام لم تعهده من قبل، ولما كانت طوع أمره، ووفق رغبته ورهينة مشيئته، سارعت بكل نشاط لتحقيق رغبته في عشاء دسم لم تترك فيه صنفاً من الأصناف التي يحبها ويؤثرها ويفضلها على غيرها إلا ضمته إلى مائدته، وتناولا عشاءً شهياً لم يذق مثله منذ شهور.

أوى الزوجان إلى الفراش في ساعة متأخرة من الليل بعد أن شاهدا عرضاً فنياً على شاشة التلفاز استمتعا به كل الاستمتاع، وما كاد عبد السلام يضع رأسه على الوسادة حتى استغرق في النوم أيما استغراق، وراحت أنفاسه تتلاحق مسرعة يتبعها لهاث عميق، وشخير واضح، وزوجه إلى جانبه تتفحصه وتراقبه بحذر شديد بعد أن هجر النوم عينيها، وبدأت الوساوس والأفكار السيئة تنهشها، وبحدسها الشفاف أدركت أن زوجها يعاني همّاً لا تعرف له سبباً، وقلقاً لا تدري له مصدراً، مع أن حياتهما كانت ولا تزال على أهنأ ما تكون؛ لا يعكر صفوها ولا ينال منها أي معكر، وباتت وهي تتفرس في وجهه وملامحه، وتراقب ما ينِدُّ عنه من حركات عفوية لم تعهدها فيه، من قبل أن يكشف عنه غطاءه بعصبية كالملسوع، وهَبَّ من فراشه يرتجف كالمذعور، وهو يحشرج بكلمات: مكتبتي.. مكتبتي.. سرقها اللصوص.. اقبضوا على الأوغاد..

لم يكن من زوجته إلا أن ضمته إلى صدرها في حنو وإشفاق، ومن خوفها وروعها أخذت تتعوذ من الشيطان الرجيم بصوت متهدج وتمسح برفق عن جبينه قطرات العرق المتصبب إثر الكابوس المزعج الذي أَلَمَّ به..

حتى إذا هدأ روعه، واسترد أنفاسه، هُرع إلى مكتبته يتفقدها فوجدها قائمةً في مكانها لم تسرق.

الكبش

ذهب إلى سوق الغنم فوجده يكتظ بالخراف بين صغيرة وكبيرة، فاسترعى انتباهه كبش يعلو بظهره سوية أظهر الخراف الموجودة..

كيف لابن بارٍ ألاَّ يحرص على برِّ أبيه حياً أو ميتاً..؟ ولا يقتنص كل فرصة سانحة يجود بها الزمان لتسديد دين ثقيل في عنقه، هذا الدَّين الذي قدمه والده إليه في كل مراحل حياته طوعاً وحباً، باذلاً كل جهده ووقته لتنشئته نشأة قويمة في بيئة صالحة متمسكة بأهداب الأخلاق الفاضلة، والسيرة الحميدة، والعقيدة السليمة...

كان هذا حال (صادق) الابن الذي ورث عن أبيه فضائله، بما في ذلك السمعة الطيبة، حتى شَبَّ وكبر وآثر ألاَّ يتزوج بل أن يعيش لخدمة والده الذي أرهقه المرض وأضعفه التقدم في السن، كما آلى على نفسه أن يخدمه خدمة المحب الراجي له طول العمر؛ لا خدمة الكاره الراغب في قصره، تجنباً للمتاعب، وكذلك أخذ على عاتقه المبادرة لنجدة كل معسر من أهله، وإعانة جيرانه ومعارفه بما يحتاجون إليه عفواً منه، وبأريحية صافية يحسد عليها من دون أن يَمُنَّ فيها على أحد، أو يشعره بالتفضل عليه، واجداً كل ما يبذله فرضاً عليه، وواجباً في عنقه..

من هذا المنطلق كان لا يُفَوِّتُ فرصة من الفرص التي يجني فيها الترحُّم من الناس على أبيه، والذي يذكره كثيرون بالاستحسان إلا بادر إليها، كما اعتاد المساهمة في كل عمل صالح ولو بالقدر اليسير، فلم يبخل بالتبرع لبناء مسجد أو إنشاء مدرسة، أو إقامة مشفى، أو دعم جمعية خيرية فقدَّمَ ما يمكنه على قدر الاستطاعة، وهو يضمر في نفسه أنه يفعل كل هذا عن روح والده الذي لا ينساه أبداً...

وكان يجود بأكثر من المستطاع فيما لو طلب منه أي مساعدة إكراماً لروح والده، فيبذل كثيراً بنفس طيبة منشرحة وكأنه يأخذ ما يعطي..

كان والده في حياته كلَّ شيء؛ لأن أمه توفيت بعد ولادته بشهرين فلم يعرف عنها شيئاً، ولهذا أصبح والده بمنزلة أمه وإخوته وأسرته، حتى إذا اختاره الله إلى جواره فقد بفقده كل شيء، ولم يعد في الدنيا أي شيء يوازيه، ولذا فقد دأب على إكرام أصدقاء والده، وتعهد زيارتهم بين فينة وفينة، وبذل نفسه طوعاً في خدمة من هو بحاجة إلى الخدمة أو المساعدة، ولم يترك مناسبة من المناسبات إلا قَدَّمَ فيها شيئاً يعود على والده بالخير والرحمة.

وفي يوم من الأيام المباركة التي يفيض فيها ثواب الصدقة والإحسان على الفقراء والمحتاجين من الناس، وكان قد توافر لديه مبلغ من المال يستطيع به أن يشتري خروفاً يذبحه عن روح أبيه، ويُوَزِّعُ لحمه على المحرومين ممن يعرف أو لا يعرف احتساباً لوجه الله الكريم، وثواباً لوالده الراقد تحت التراب... ذهب إلى سوق الغنم فوجده يكتظ بالخراف وهي بين صغيرة وكبيرة ومن مواليد هذا العام أو الذي سبقه، بيد أن الذي استرعى انتباهه كبش يعلو بظهره سوية أظهر سائر الخراف الموجودة، يُزَيِّنُ رأسه قرنان كبيران معكوفان يختال بهما على سائر أقرانه كما تختال العروس بزينتها ليلة زفافها بزهو وكبرياء، يكسو جسده ويفيض عنه إلى ما تحت رجليه صوف ذهبي اللون يلمع تحت أشعة الشمس، فوجد في نفسه رغبة ملحة في شراء هذا الكبش الذي لا يضاهيه كبش آخر في كل ما شاهد، وهو يضمر في نفسه زيادة الخير والثواب لأبيه...

دخل في المساومة مع صاحب الكبش الذي أحس باستحسانه ورغبته في شرائه فأغلى الثمن، بيد أن صادقاً ظل يساومه حتى توافقا على القيمة، فاشتراه وكأنه اشترى السعادة بأبهى معانيها، وانتقل مع الكبش إلى داره بإحساس من يقوم بعمل جليل سيعود عليه برضا والده وهو في عالم الغيب، وسيناله من لحمه الذي سيدخل أجواف الفقراء، الدعوات الصالحات المخلصات..

ربط الكبش من قرنيه بحبل متين إلى جانب باب داره ووقف يتأمله وهو يشعر بسعادة غامرة، ولكنه أخذ يفكر فيمن سيذبحه له، فهو لا يمكنه ذلك، ولا سيما أن الكبش قوي متين وسوف يصارع بقوة من يتقدم لذبحه، وبينما هو في هذه الحيرة مَرَّ به جار له تربطه به وشائج الألفة والتقدير، وقد أدرك هذا الجار حيرة صادق فيمن يذبح الكبش؛ فسأله أيعرف جزاراً في هذا الحي يقوم بالمهمة، فأرشده إلى جار له غير بعيد يمتهن ذبح الخراف، والأقربون أولى بالمعروف، فما عليه إلا أن يقصده..

وانطلق صاحبنا لاستدعاء الجزار المعروف بالحي باسم أبي صفو.. فطرق بابه، ولم يلبث بعد هنيهةٍ أن خرج إليه أبو صفو مرحّباً..

قال له صادق: أرجو إن تكرمت أن تتفضل لتذبح لي كبشاً اشتريته اليوم وأود ذبحه عن روح والدي..!!

فقال أبو صفو: لبيك يا جار، أنا في خدمتك ولكن أين هو الكبش؟

فقال صادق: غيرَ بعيد؛ ربطته إلى جانب داري..

فقال له أبو صفو: اذهب أنت ريثما أحضر عدة الذبح وسآتيك فوراً لتلبية طلبك...

لم يتأخر أبو صفو قولاً وفعلاً، ووافى صادقاً أمام داره، ولكنه حين رأى الكبش أدهشته المفاجأة فانبرى نحو صادق قائلاً: لم أر في حياتي كبشاً بهذا المستوى فهو يشبه العجل حجماً، ويزيد على ما سواه وزناً، ولهذا السبب فأنا، ورأسِ أبي وحرمة آبائي وأجدادي، سأذبحه عن روح أبي أنا...

فقال له صادق: ماذا تقول..؟

فقال أبو صفو: كما سمعت..

فقال صادق: كيف ستذبحه عن روح أبيك وأنا الذي اشتريته ودفعت ثمنه وتجشمت العناء في شرائه ونقله..؟

فقال أبو صفو: لا تحاول، ورأسِ أبي وتربة أجدادي – وقد رفع الساطور[4] في وجه صادق مهدداً – لأذبحنّهُ عن روح أبي..

ولما لم يجد صادق مناصاً من إقناع أبي صفو بذبح الكبش عن روح أبيه؛ قال له والألم يعتصر قلبه، واليأس يلامس روحه: لا عليك.. تفضل اذبحه عن روح أبيك لأن الله يعرف من دفع الثمن..

موت وحياة

خرج المصلون من جامع (الغفران) المتربع على ناصية حي من أحياء دمشق القديمة بمئذنته الرشيقة الشامخة.

حين خرج المصلون من جامع (الغفران) المتربع على ناصية حي من أحياء دمشق القديمة بمئذنته الرشيقة الشامخة، كانت نسيمات الفجر اللدنة الهفهافة تسري رخاء فتلمس الوجوه برفق، وتداعب الأعطاف بيسر، وليس ثمَّةَ ما يُمَزِّق حجاب الهدوء، ويعكر صفو السكون في صباح هذا اليوم من أيام حزيران عام 1937م سوى دبيب الحياة، وحاجة مطالب العيش التي أخذت تزرع المنافذ والطرقات بوقع أقدام عمال الأفران، وأصحاب المهن اليدوية المختلفة، الذين يتوجهون إلى أعمالهم بهمة ونشاط؛ مسرعين في خطوهم كأن السياط تلهب ظهورهم للوصول إلى مقاصدهم، وهم يحملون في أيديهم صرر طعامهم وزادهم للفطور والغداء..

كما كانت قوافل الحمير التي تنوء بأثقال الأحمال من نبات القِنَّب اليابس، التي تدلت على الجانبين لتمس الأرض من دون حذر، حيث تحدث من زحفها مع وقع أقدام الدواب نغماً موسيقياً ذا رتابة، وأصحابها من خلفها يقصدون الأفران التي تعتمد هذا النوع وقوداً مفضلاً بسبب حرارته المرتفعة لإنضاج الخبز في الوقت الذي لم يكن معروفاً لديهم أي وقود آخر.

كما انطلق الكنَّاسون ينظفون الطرقات الضيقة والحارات المتعرجة بمقشاتهم المصنوعة من شيح الجبال الذي ينبت على الروابي حُرّاً من دون زرع، بعد أن يرشوا الأرض من قربهم الجلدية المحمولة على الأكتاف والمترعة بالماء؛ لتفادي إثارة الغبار حفاظاً منهم على الصحة العامة، وتجنباً لما يحدثه الغبار من أمراض كارثية عزتها العصور الحديثة إلى الغبار.

لم يمض وقت طويل على انطلاق المصلّين حين خرج الشيخ سلمان من المسجد يخطو باتزان ووقار، وقد غاص في جبته العريضة الطويلة التي كادت من طولها تلامس الأرض، وهو

يحمل في يده سبحته المصنوعة من بذر الزيتون تلك الشجرة المباركة، وهو في طريقه إلى داره يتلو بعض الذكر ويردد التسبيح، ويتمتم بعض الأدعية.

ولم يكد يصل في سيره قبالة دكان أبي درويش سمان الحارة وخزان أغذيتها، حتى استوقفه رجل ضخم الجثة، طويل القامة، عريض المنكبين، خشن الملامح، جهم الوجه يحس من يلمح ظاهره بالشراسة، وعدم الكياسة واللطافة، حيث أمسك بساعد الشيخ سلمان بغلظة وفظاظة وهو يقول له: إلى متى يا شيخ سلمان وأنت تماطل وتُسَوِّف..؟

فأجابه الشيخ: هَوِّن عليك يا أخي فالدنيا عسر ويسر، وإن الله مع الصابرين..

فرد عليه الرجل بصوت جهوري عال: كفاك هراء وأعذاراً، لقد نفد الصبر، وللصبر حدود..

فقال له الشيخ سلمان بصوت هادئ: أرجوك يا سيدي، اترك ساعدي ولا ترفع صوتك؛ إذ ليس في الأمر ما يدعو إلى الحِدة والغضب..

فقال الرجل: لقد استحق عليك المبلغ منذ شهر وأكثر، وأنا لم أعد أصبر على التسويف، سأدعو الناس ليروا بأم أعينهم الشيخ الذي يؤمهم في صلاتهم أنه لا يؤدي الحق لأهله..

سمع أبو درويش طرفاً مما دار بين الطرفين من سجال، وأدرك بحدسه الفطريّ أن الأمر يستوجب التدخل حتى لا يستفحل ويعسر على الحل، فما كان منه إلا أن رفع الخشبة التي تفصل الزبائن عن دخول الدكان، والتي درجت الحوانيت القديمة على استعمالها ودفع بالرجُلين إلى داخلها قائلاً: هنا يسوّى الحساب، ثم سأل الشيخ سلمان عن المشكلة فقال له: لقد استطعت أن أجمع من حرمان نفسي وأسرتي طيب المأكل والملبس ردحاً من الزمن بضع مئات من الليرات الورقية؛ لأشتري لأسرتي مأوى نفيء إليه، بعدما عانيت من سكني في غرفة من الغرف التي تغص بها أفنية المساجد الأثرية، وقد تفضل بعض الوجوه والمريدين المخلصين بشراء بيت صغير لي هو جزء صغير من بيت كبير قديم يفي بالحاجة ضمن أقل المواصفات. وقد بعت في سبيل ذلك كل ما أملك من أثاث ومتاع، واضطررت إلى الاستدانة، فاستدنت من هذا الرجل مئتي ليرة لأثقل نفسي بالدَّين وهَمِّه، وقد حَلَّ أجله وأنا معسر، ولا أنكر حقه أمامك وأمام الله، فماذا أفعل وليس لدي ما أسدد به دينه؟

وهنا أخذت الحميَّة أبا درويش وتوجه إلى الرجل بقوله:

لا عليك يا أخي، اترك ساعد الشيخ، فأنا أضمن دينك، والمبلغ عندي وبذمتي؛ فإذا نودي للصلاة من عصر الغد أكون والمال بانتظارك، أفيرضيك هذا..؟

فقال الرجل بتأفف ظاهر: ماشي الحال، وعليك أن تعلم أني لا أملك من المال سوى المبلغ الذي فَرَّجت به هم الشيخ سلمان وأنا الآن بحاجة إليه..

فقال له أبو درويش: هوّن عليك ولن يكون إلا ما يرضيك..

دخل أبو درويش دكانه وراح يضرب أخماساً بأسداس، لقد تعهد بالمال، ولكن من أين سيأتي به. وكل ما في دكانه لا يساوي ثلاث مئة ليرة..؟، وبعد أن هدأ نوعاً ما، وشرب كوباً من الشاي الأحمر الثقيل لمعت في خاطره المكدود فكرة استبشر بها خيراً وطمأنت قلبه، فرحب بها وغدا

جذلان لا تكاد الدنيا تسعه على رحبها، فسوّى عمامته على رأسه، وأحكم منطقته حول خصره، ودسَّ رجليه في حذائه؛ ثم أغلق دكانه وراح على بركة الله، ولكن إلى أين..؟

لم يبعد كثيراً عن دكانه بل توقف أمام دار ينم بابها الكبير المزخرف عن رخاء صاحبها، فطرق الباب وانتظر مصغياً بكل حواسه ليرد على السائل من الداخل، ولكن ذلك لم يحدث، إذ فُتح الباب دون استيضاح، واستقبله صاحبها بالترحيب والابتهاج، حتى إذا استقر به المقام على مقعد مريح في بهو الضيوف قال لصاحب الدار:

– جئتك اليوم بأمر ذي خطر، وأنت له أهل وأكثر..

– خيراً يا أبا درويش وما هذا الأمر..؟

– الأمر أنني عرفت فيك النجدة والمروءة والاندفاع في سبيل الخير والمعروف، واليوم بين ظهرانينا رجل فاضل عفيف أثقله الدين في سبيل عيشه وبيته، وأنت أهل لنجدته وتفريج كربته..

– لعينيك يا أبا درويش: مالي وجاهي وما تفرضه عليّ.

وانبرى أبو درويش يقص على الوجيه ما دار أمام دكانه وكيف تصدى لحله، وتعهد بتسديد الدين وهو لا يملكه..

فما كان من الوجيه المحسن وقد أخذته الأريحية بإغاثة من هو بحاجة إلى الإغاثة إلا أن وعد أبا درويش بالذهاب معه إلى دار الشيخ بعد صلاة العشاء حين يكون الناس قد أووا إلى دورهم، والليل قد مَدَّ ظِلّهُ الفاحم على المعالم فلا يراهما أحد من الجوار أو من معارف الشيخ..

طرق أبو درويش باب الشيخ سلمان فانحسر عن الشيخ نفسه الذي بدا عليه الارتباك وتملكته الحيرة فيما يصنع، في اللحظة التي تزاحمت في رأسه المشاكل؛ فهو يود استضافتهما ولكن أين يقعدهما؟ وماذا يقدم لهما؟ وبماذا يكرمهما وماذا؟ وماذا؟ وفوق ذلك؛ ماذا يبغيان منه في هذا الليل وحاله لا تسمح بأي شيء؟ كما أنه في وضع مأساوي لا يحسد عليه.

دخل الرجلان ومشى الشيخ بين يديهما في الغرفة التي تضمه وابنته الصغيرة المريضة ذات الخمس سنوات والممددة على حشية مهترئة لا قوام لها، وقد حملها الشيخ بين يديه وهي تتلوى من وطأة الحمى، وأخذ يهدهدها والدمع يترقرق في مآقيه..

وبينما هما في هذه الحال طرق سمعهما صوت امرأة تتوجع، بصوت محشرج مكبوت، وتكظم ألمها على مقربة منهما في الغرفة المجاورة.

وبالاستيضاح من الشيخ قال: إن زوجته تعاني ولادة عسرة ولا قدرة له على استدعاء الطبيب، وقد ترك الأمر لله..

وطفرت من عيني الشيخ دموعه الغزار التي سقطت على وجه ابنته المسجاة على يديه فانتبهت من غيبوبتها وقالت له بما يشبه الحشرجة: لِمَ تبكي يا أبتاه؟ هوِّن عليك واحتسبني في ذمة الله..

ولم يكن من أبي درويش وصاحبه إلا أن أسرعا بخطا حثيثة لاستدعاء الطبيب الذي استطاع بعد جهد إسعاف الزوجة التي كادت براثن الموت تنشب أظافرها في جسدها الناحل الهزيل؛ من

خلال معاناة شديدة أعانها آلله في تحملها، وقد تَمّتِ الولادة فأنجبت بنتاً تشرق في وجهها الصغير آمال مستقبل غامض لا يعلمه إلا الله..

أما الفتاة المريضة التي يحملها والدها وهي تتلظى بالحمى التي لم ترحمها فلفظت آخر أنفاسها على يدي والدها، في الوقت الذي صاحت فيه شقيقتها الوليدة أولى صيحاتها تستقبل فيها الحياة، وهي لا تدري من أحداثها شيئاً، ولم تنفع المريضة في القدر المكتوب براعة الطبيب، ومرارة الدواء لإنقاذها والإبقاء على حياتها.

وقضى الرجلان الدَّين عن ذمة الشيخ إيثاراً للخير، وتقرباً إلى الله زلفى في الوقت الذي كتب فيه لمأساة الشقاء أن يبطل سحرها أمام المروءة والنجدة والاندفاع..

ثم أسدل الستار

نزل رشيد في فندق متواضع من فنادق الدرجة الدنيا في سوق التبن المعروف بفنادقه الرخيصة.

ولدا ونشأا في بيت واحد، وتفتحت طفولتهما على مآسي الحرب العالمية الأولى التي طحنت البشر بين حجريها الدائرين بلا شفقة أو رحمة، واستمرت بلا هوادة أربع سنوات عجاف فذاقا طعم الجوع، وألم الحرمان مما يقيم الأود، وشهدا بأم أعينهما أرتال الموتى تغص بها عربات البلدية مكدسة بعضها فوق بعض من دون ترتيب أو نظام، فرأس الواحد إلى جانب أقدام الآخر إمعاناً في حمل أكبر عدد منهم إلى المدافن.

كما سمعا بآذانهما الصغيرة عبارات الاستغاثة والاستجداء طلباً للقوت بأصوات تقطع نياط القلوب تنطلق من حناجر وتشبه الحشرجة لأجساد أنهكها الضعف، وران عليها شبح الموت تطلب اللقمة فلا تجدها، إلى جانب جثث بشرية منتشرة على أطراف الطرقات تنتظر من يواريها التراب.

في هذا الوقت بالذات عَزَّت اللقمة على الناس، حتى تلك التي يدخل في صنعها الحبوب السيئة أو ما يشبهها من تلك التي لا تصلح للبشر، ولا تُرضي البهائم، وحتى هذه لم تتوافر إلا لمن كتب له الحظ السعيد.

هكذا كانت الأيام العصيبة التي عاش فيها شفيق الذي لم يتجاوز سبع سنوات وأخوه رشيد الثلاث سنوات في ظل والد ووالدة كافحا كفاح الأبطال في سبيل العيش والإبقاء على الحياة لأسرتهما؛ بما يقيم الأوَدَ فحسب دون حد الشبع، في الوقت الذي حصد فيه الموت أسراً عديدة بكاملها لم يبلغها رغيف واحد من تلك الأرغفة المصنوعة من أسوأ المواد وحتى المضرة منها.

حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، وبدأت الأحوال تميل إلى الانتعاش، ودولاب العمل والإنتاج يتحرك ببطء ليعطي أكله بعد توقف طويل، وأخذت النفوس يشيع فيها قسط من الطمأنينة والأمان، أصاب أبا شفيق مرض أقعده عن العمل، فأخذ يعاني منه معاناة شديدة، وكم ود بعد

هذا الكفاح الطويل مدة الحرب أن يلقي عصا الجهاد ويخلد إلى الراحة ويستريح، ولكن أين هي الراحة ومرضه يستفحل يوماً أثر يوم.؟

ولما اشتد به وأخذ يتفاقم نتيجة للأحداث القاسية التي مرت به خلال أعوام الحرب السوداء والتي كان المسبب فيها الفقر وسوء التغذية، أخذ يتردد على عيادات الأطباء يرجو في رحابها أمل الشفاء، أو بصيص الصحة أو بعض العافية، ولكن من دون فائدة ترجى أو دواء يفيد أو رقية سحرية تفعل المستحيل، حتى لاقى وجه ربه يحمل هم العبء الثقيل الذي تركه لزوجه تحمله على كاهلها دون معين.

في هذا الظرف الصعب كان شفيق قد بلغ الثانية عشرة من عمره، ولم يكن أمام أمه، وليس لديها من المال ما يمكنها من تأمين العيش لولديها، وتحت وطأة الحاجة – إلاَّ أنِ اضطرت إلى أن تستعين بأجر ولدها شفيق من عمله أجيراً لدى بائع أدوات منزلية، وقد أجهدت فكرها للتدرب على عمل خياطة العباءات العربية التي تقوم عليها تجارة سوق مدحت باشا من أسواق دمشق. وقد تعهد لها صاحب المصنع – وكان إنساناً فاضلاً كريماً– بتأمين آلة خياطة تعمل عليها.

لما تدبرت الأم أسباب العيش الكفاف حرصت على تعليم ولدها رشيد وهو في سن لا تزال تؤهله للعلم والمعرفة، وأعانها على هذه الرغبة وهذا الحرص ابنها شفيق فوضعاه في كتَّاب قريب من مسكنهما يتعلم فيه القراءة والكتابة وآيات القرآن الكريم.

كان شفيق طوع أمه ورغباتها، يحرص على رضاها بكل الأسباب والوسائل حرصاً شديداً، ويساعدها في كل شؤونها. في حين كان رشيد على العكس من أخيه يتغلغل في نفسه عنصر التمرد وحب المشاكسة، ولا يقيم لرضاء أمه أو سعادتها وزناً، وإزاء ذلك كان لسانها يستمطر أدعية الرضاء على شفيق، ويتلعثم إذا اضطرت إلى الدعاء لرشيد فلا يجود لسانها إلا بالقليل القليل..

تحسن حال شفيق وامتلأت يده بحفنة من المال فكان أول ما بادر إليه أن أعاد الآلة إلى صاحبها وحَرَّمَ على أمه العمل، وراح يتحفها بالأشياء التي ترضيها لإدخال السرور في قلبها.

أما رشيد فقد دأب يزعج أمه احتساباً لوجه الشيطان، مع أنه نال قسطاً من التعليم كان يجب أن يدفعه إلى بِرّ أمه وإكرامها، وهي التي كافحت بعد موت أبيه الكفاح المر، وسهرت الليالي خلف آلة الخياطة تضني جسدها، وتجهد بصرها، للكسب الحلال، كما لم يحس بوخز الضمير من أن أخاه انخرط في العمل صغيراً ليوفر للأسرة القوت، ويدفع بأخيه للعلم والمعرفة إيثاراً على نفسه.

ولما أصبح شفيق في يسر مادي مقبول تزوج من امرأة صالحة أعانته على التقدم في الحياة وبرّ أمه، وقد أنجبت له ولداً وبنتاً، غير أن رشيداً كان يعيش لساعته غير مكترث بمستقبله، وغير مطيع أو بارّ بأمه، وغير مقدِّر لما ينفقه أخوه عليه وهو غير ملزم بالإنفاق، وظلت الأمور تجري على هذا المنوال حتى جاء اليوم الذي لم يكن بالحسبان..

ففي عصر ذلك اليوم الذي تجاوز فيه رشيد التاسعة عشرة من عمره، والأمل منعقِدٌ عليه أن يسعى إلى العمل بعد أن تعلم، فيبني حياة كريمة له ولأسرته التي كان من المأمول أن يؤسسها،

قال لأمه، وبصيغة الأمر الواقع: سأسافر إلى مصر بعد أيام...

بوغتت الأم من قوله، وقالت له وهي مشدوهة: وما في مصر يا رشيد..؟

فقال: سأعمل في مصر وكفى.

فردت عليه أمه: أنت هنا في بلدك والعمل موفور، لم تفلح في السعي إليه، فكيف بك في بلد لا تعرفها ولا تعرفك، وأشك أن يكون قد عرض عليك أي عمل فيها..

وهنا تدخل شفيق وقال له: ما في مصر يا أخي من أمل يدفعك إلى السفر..؟

فرد عليه رشيد بفظاظة: ما لك أنت.. عليك نفسك ولا تتدخل في حياتي.

قالت الأم: الآن لا يتدخل في حياتك وقد أضاع مستقبله وخرج إلى الدنيا أمّياً في سبيل تعليمك، وعيشك وعيشي... ألا لا بارك الله فيك وفي أمثالك يا ناكر الجميل...

لم يجب رشيد بشيء، وانتهى الحوار عند هذا الحد، ولكن كان يبدو أنه صمم على السفر.

لم تمض أيام كثيرة حتى حضر رشيد إلى الدار ملهوفاً وجمع ثيابه وبعض أشيائه، وانطلق كالسهم المارق مغادراً الدار من دون أي وداع لأمه أو أخيه.

بكت أم شفيق تأثراً لفراق ابنها وانطلاقه للمجهول، وبخاصةٍ أنه لم يذكر لها ماذا سيعمل في مصر، ولم يوضح إذا كان سيذهب إلى عمل مضمون حتى تطمئن عليه.. وكيف سيذكر ما هو ذاهب إليه ومن طبعه التمرد والكتمان وعدم الاكتراث بأحد، أو قبول النصح من أي ناصح، أو القبول بالإرشاد والرأي السديد؟ فليركبْ رأسه، قالتها أمه وأخوه في سرِّهما..

بعد شهر من غيابه وقلب أمه على أحر من الجمر تنتظر بارقة تطمئنها على ولدها حتى ولو كان غير بارٍّ بها؛ لأن قلب الأم لا يفرّق بالحنان والحب بين أحد من الأولاد، سواء المحسن أو المسيء، وردت منه رسالة يخبرهما فيها بأنه وجد عملاً بأجر جيد، وأنه سيتابع مراسلتهما بعد أن يصبح له عنوان ثابت..

اطمأنت الأم والأخ وتمنيا له الفلاح والنجاح..

بدأ نجم شفيق يسطع في بلده، حتى استطاع خلال سنوات من غياب أخيه رشيد بجهده الدؤوب، وعمله النشيط أن يمتلك ناصية العمل، ويكتشف خفايا المهنة، واستطاع بفطنته وحب معلمه له أن يستقل بعمله، ويصبح بعد لأي من الزمان نِدّاً له؛ فمن حانوت صغير إلى حانوت أوسع، ومن متجر واحد إلى متجرين بل إلى ثلاثة، وأصبح من التجار المرموقين في دمشق؛ يسافر براً وبحراً إلى أقاصي الدنيا وأصقاعها لجلب البضائع النادرة من مظانها...

أمّا رشيد فقد انقطعت رسائله، وبفضل توسع تجارة شفيق ووجود عملاء تجاريين له في مصر عرف أن أخاه، وكان وسيماً، تزوج من امرأة ثرية مزواج أرملتْ زوجين قبله، بهرتها طلعته، وأعجبها بياض بشرته ووسامة وجهه وانتصاب قامته فأفسحت له المجال أن يعمل لديها، ثم استدرجته مع فارق السن بينهما إلى الزواج منها، وهو ما كان يصبو إليه، وعاش زهاء عشر سنين على مائدتها من دون أن يملك المال أو الخبرة في العمل، لأنه ظل كما يقال في مصر: زوج الست...

ومن طبيعة الرجل أو المرأة المزواج ألاَّ يستقيم لهما حال، أو يدوم الزواج بينهما، أو أن يكون أبدياً كما يقتضيه الشرع الحنيف، كما أن من طبيعة الجمال والوسامة ألاَّ يدوم عهدهما، وعلى هذا كان شأن رشيد، إذ بدأت تذبل نضارته وتذوب وسامته بعد أن تمتعت زوجه بشبابه، وأخذت تشرئب برأسها إلى شاب جديد تمتلكه بثروتها فأدمنت مكارهته ليطلقها..

ولأنه لا يملك من المال ما يعينه في حياته على الكسب، وقد اعتاد العيش على أكتاف الآخرين، اسودت الدنيا في عينيه، واستصغر نفسه أن يعود إلى وطنه خالي الوفاض وأخوه ينعم في مجده التجاري الباذخ، فاستكان للذل والانطواء على النفس، والتدخين بشراهة، مستهيناً بضرره البليغ شأن من يود الانتحار ويستعجل النهاية؛ فكرهته زوجه أكثر وأكثر ورغبت في الطلاق منه، ولكنه تمرد ولم يفعل...

ولما طال عليها الأمد عرضت عليه مبلغاً من المال ليطلقها ويعود إلى بلده يقضي فيه بقية حياته بين أهله، فرفض أولاً، ثم أذعن للطلب إزاء الحاجة، وإغراء المال، فأعطته ما يستطيع أن يعمل به، ولكنه وقع في فخ امرأة أخرى لا ترتفع عن سوية الأولى من حيث المكر والدهاء والرغبة في تبديل الأزواج كلما وجدت فرصة سانحة لذلك، إلا أنها كانت على غير سابقتها، ممسكة اليد في البذل والعطاء..

عاش رشيد مع الزوجة الثانية عشر سنوات أو أكثر بقليل، وانتهى به الأمر كما انتهى مع الزوجة الأولى، وخرج إلى الدنيا ببضع جنيهات لا تسمن ولا تغني من جوع، في الوقت الذي كان مرض السكر الوبيل قد افترس جسده المنهك من شدة التدخين، وأصبح مريضاً بمرض عضال يمنعه من العمل حتى لو أراد ذلك، وليس لديه من الثروة ما يكفيه عيشه في بلد الغربة، فآثر أن يعود إلى دمشق يقضي ما بقي له من أيامه مهما كانت الظروف والنتائج...

ماتت أمه بعد سفره بعشر سنوات دون أن تكتحل عيناها برؤيته منذ غادرها إلى مصر، وكانت تطوي في نفسها الحسرة واللوعة أن تموت ولا ترى رشيداً...

غير أن ما كان يُسَرّي عنها هذه اللوعة وتلك الحسرة أن ابنها شفيقاً الذي أقبلت عليه الدنيا الواسعة بعطائها غير المحدود، لم يكن يوفر شيئاً مما يمكن أن يرضي أمه أو ينال استحسانها، أو يعطفها عليه حباً وحناناً إلا قدمه بسرور بالغ ونفس متفتحة، وكثيراً ما كان يجلس عند قدميها يمرغ وجهه بهما وهي تستهجن ذلك وتبعدهما للتخلص منه وهو يبالغ في التمرغ برغبة وإصرار.

وعاد رشيد إلى دمشق بعد غياب فاق عشرين عاماً منهكاً يفتك بجسده النحيل مرض السكر، وعلَلٌ أخرى لم يأبه لها أو لم يعرها اهتماماً بسبب ضيق يده وعجزه عن أجور الأطباء، وقد انحنى ظهره، وضعفت رجلاه عن حمله، وغام بصره؛ فلم يعد يبصر إلا شبح الأشياء، فنزل في فندق متواضع من فنادق الدرجة الدنيا في سوق التبن المعروف بفنادقه الرخيصة، ولم يخبر أحداً بعودته، إذ لم يكن له من الأهل الذين يذكرهم بعد الغياب الطويل سوى أمه وأخيه اللذين لم يلتق بهما خلال هذه السنين الطويلة التي مرت، أو يسأل عنهما.

أقام في الفندق بضعة أيام لا يحاول مغادرته للتفتيش أو السؤال عنهما، وهو لا يعلم أن أمه ماتت وأصبحت في ديار الحق، وأن أخاه أصبح من رجالات دمشق الأثرياء اللامعين في الأوساط الاقتصادية والاجتماعية، وكيف له أن يعلم وهو لم يسع إلى ذلك..؟

ظل أياماً كئيباً مريضاً لا يخرج من الفندق إلا إلى الأماكن التي تقدم الطعام الرخيص بعربات متنقلة على أطراف الأرصفة، أو في الدكاكين الشعبية البائسة؛ ينال منها ما يسد رمقه ويشتري كمية كبيرة من أسوأ أنواع الدخان يدفن في تدخينها مأساته وهمومه التي كانت من صنع يديه وجنوح فكره..

لم يمض على مكوثه في الفندق بضعة أيام حين نزل كعادته مساء ليشتري ما يأكله، وكان نور السلم خافتاً يضطر النازلَ إلى تلمس الجدران بأصابعه، زلت به القدم فتدحرج إلى أسفله غارقاً في دمه فاقد الوعي..

ثم أسلم روحه لبارئها على سرير المستشفى مجهولاً لا يدري به أحد.

---

[1]ولد بدمشق عام 1315هـ وتوفي عام 1382هـ .

[2]كلمة يستعملها أهل الشام فيها المذمة .

[3]ما يوضع على العجينة من لحم وبصل وصنوبر وتوابل .

[4]سكِّين كبيرة للقطع .